روايات مصرية للجيب

آخر الرعاة

لوتس

7

Looloo
www.dvd4arab.com

لـوتس

فى قلب التاريخ ، تسكن حضارة مصر الفرعونية .
بكل جمالها وقوتها .
حقائقها وأساطيرها .
نورها ونارها .
من قلب النيل نبعت هذه الحضارة .
كزهرة لوتس عطرة الرائحة .
ندية الملمس .
متألقة الألوان .
وإلى قلب الماضى ، نبحر فى قارب من البردى .
نجوب أجواء زمان ولّى .
مخلفًا آثاره التى لا تزول .
شامخةً فى وجه الدهر .
وفى وجوه حاملى معاول الهدم والتشويه .
إنها زهور أينعت منذ فجر الوجود .
فتفتحت أوراقها .
وانتشرت أنوارها إلى كل الحضارات الإنسانية الأخرى .
إنها زهور لوتس .
فى قلب مصر .. القديمة ..

محمد سليمان

١ـ خيـــانة ..

رمال صحراوية قاحلة تتوهج تحت الشمس الملتهبـة بالضوء والهجير ..

وعيون محمرة من ذرات الغبار الجافة ، ومن غضب القرون العجاف ..

صوتـه الأجش يصيـح متذمـرًا وهـو يلقـى بجسـده القوى كالثور على صخرة ؛ بجوار خيمته التى تهتز مع الريح :

ـ أين الطعام والشراب ؟!

شعره الكثيف ولحيته السوداء الأكثر كثافة مغبران إلى حد يخفى سوادهما ، الرداء الرمادى الممـزق الذى يكسو جسده الضخم تلوثـه القذارة فى غير موضـع ، الأسـاور المعدنيـة الصدئـة التـى تتدلـى مـن رسـغيه الهائلتين وكاحليه المتضخمتين تهتز مع ارتجاجات جسده الثقيل مصدرة رنينًا موسيقيًا خافتًا ، العينـان واسـعتان ملونتـان فـى تنـافر والأنـف ضخـم فـى عنجهيـة كاذبـة والنبرة مدوية مزعجة كأنها سيل مـن الصخـور ينحـدر

من قمة جبل عال .. على يمينه فوق صخرة أخرى غطاء رأس معدنى ضخم ، مطلى بالقار الأسود اللزج ، ينبع من قمته قرنا ثور ضخمين صاعدين لأعلى ، كان قد خلعه من فوق رأسه قبل قليل .. إلى الغطاء يستند رمح طويل ذو رأس معدنى أثلم أكله الصدأ ، كان قد أسنده بيده المتشقق جلدها قبل قليل فى هذا الموضع ..

لم يجبه أحد بعد صمت قصير ، فعاود الصياح فى تذمر ، وهو يرنو بعينيه خلسة إلى الأفق الرملى الذى يعانق سماء خاوية ، تتكسر فيها موجات الضوء إلى ألف سراب :

ـ هل مات الجميع هنا أم ماذا ؟!

من على ربوة بعيدة يمكنك أن ترى الصورة كاملة ، عشيرة بدوية تنتصب خيامها بين الرمال ونباتات الصحراء الشيطانية ، عشرات الخيام المنتصبة فى سكون ولا أحد أمامها أو خلفها ، كأن الجميع يحتمون بجلود الماعز وفراء الخراف التى صنعت منها الخيام من شىء ما ، من عاصفة رملية مقبلة ربما ، أو من الشمس الحامية التى تسلط جبروتها فوق الرءوس ، أو من خزى الهزيمة التى لحقت بهم منذ سنين موغلة فى البعد ، على يد

قائد فرعونى بطل يدعى (أحمس) ، فأخرجهم من (أواريس)(*) مدحورين ..

لا صوت هناك إلا صفير الريح وحركة التراب الدقيق ..

بدا لوهلة أن لعبارته وقع حقيقى ، وأن الجميع ربما يكونون قد ماتوا بالفعل ، غير أن كياناً بشريًا رجوليًا ممشوقًا برز من وراء خيمة فجأة ، يحمل قدرًا من الفخار ، ويهرول نحوه فى سرعة هاتفًا :

ـ عذرًا ، تصورت أنك لن تأكل الآن وستتأخر إلى الغروب مثل كل يوم ..

(★) عندما قام الهكسوس بغزو مصر اتخذوا من عاصمة لهم فى شرق الدلتا هى (أواريس) وقد حصنوها بأسوار منيعة وجعلوا عليها ٢٤٠ ألف رجل تقريبًا لحمايتها (وهو ما يراه العلماء مبالغة كبيرة من المؤرخ مانيتون) ، وقد اختلف علماء الآثار فى موقعها الحالى تحديدًا فانقسمت الآراء بين (تل الضبعة) و(تل اليهودية) ، لكن الرأى الأغلب أنها مدينة (صا الحجر) الحالية ، وقد جعلها الهكسوس مركزًا لعبادة الإله (ست) ، وحكم فى عصر الانتقال الثانى ٤٣ ملكًا لمدة تزيد عن قرن زمنى.كامل ، حتى ضعفت شوكة حكامهم فانتهزها أمراء طيبة فرصة وخاضوا حرب التحرير حتى حقق الملك المصرى (أحمس) النصر الكامل وأسس الأسرة الثامنة عشر وولدت الدولة الحديثة فى تاريخ مصر الفرعونى ..

ثم إنه وضع القدر الفخارى أمامه قائلاً ، وهو يعتدل فى إرهاق :

ـ تفضل ، بالهناء والشفاء ..

أسودّ وجـه الضخم أكثر وهو ينظر إلى الطعام الذى يسبح فى القدر ، ويبدو لزجًا مقرفًا حتى إن رائحته تبعث على القىء ، فما كان منه إلا أن رفع وجهه إلى محدثه ، ليملأ عينيه من وجهه المستطيل ، وشعره الأكرت المغبر ، وأثر الجرح الطولى الذى يمتد من أعلى صدغه الأيمن إلى أسفل ذقنه ، وصدره العارى الذى أطلت منه جروح ملتئمة بلا عدد ، وسرواله الرمادى القذر ، ثم إنه أشار بسبابته الضخمة إلى القدر ؛ مغمغمًا فى حنق مكبوت :

ـ ما هذا يا (تاعو) ؟!

هتف (تاعو) ضاربًا جبهته التى يبدأ الجرح من جانبها براحته ، وهتف :

ـ عذرًا مرة أخرى ، لقد نسيت الماء .. لحظة واحدة !

وأسرع يختفى خلف الخيمة التى ظهر منها ، ليعود مجددًا وهو يحمل إناء معدنيًا مصنوعًا بغير مهارة ، سارع بوضعه بجوار قدر الطعام ، وأخذ الضخم يراقب كوب الفخار السابح فى المياه القليلة داخل الإناء ، بجوار كم لا بأس به من الحشرات والفطريات !

ـ هل تسمى هذا طعامًا وهذا شرابًا ؟!

سأل الضخم وهو يشير إلى القدر ثم الإناء فى تقزز وسخطه يسفر عن نفسه شيئًا فشيئًا ، فأيقن (تاعو) أن العاصفة التى أدرك الجميع بخبرتهم الصحراوية أنها آتية اليوم قد هلت بشائرها أخيرًا ، لكنهم توقعوا أنها ستأتى من جهة الشرق ، والحقيقة أنها تهب الآن من وجه (خيان) المربد :

ـ جميعنا أكلنا من ذات الطعام وشربنا من هذا الماء اليوم يا (خيان) !

نهض (خيان) كمارد غاضب ليضرب الأرض بقدمه ، وليهدر فى نبرة رهيبة مشيحًا بذراعه :

ـ فلتذهبوا جميعًا إلى الجحيم الذى يليق بكم أيها الرعاع ، لست مثلكم ولست أشبهكم ، وإياك ثم إياك أن تنادينى باسمى مجردًا من لقبى الملكى بعد اليوم أيها المأفون .. أنا هنا الملك وكونك ابن عمى لا يعطيك الحق فى التبسط معى إلى هذه الدرجة .. أفهمت ؟!

نظر (تاعو) إلى قدميه ، وببسمة جانبية ساخرة همس لنفسه :

ـ نعم ، أنت ملك على بعض الخيام الممزقة ورعاياك بلا أرض يستقرون عليها .. نعم الحاكم والمحكوم !

بكل أسف سمعه (خيان) ، فاتسعت عيناه ناظرًا إليه فى عجز عن التصديق :

ـ ماذا تقول ؟!

أيقن (تاعو) أنه قد لسانه قد دفعه إلى حافة كارثة ، لكنه إدراك متأخر بعض الشىء :

ـ لا .. لا شىء .. كنت أمزح فحسب يا عزيزى (خيـ .. أعنى ، يا جلالة الملـ ...

وبينما هو منهمك فى محاولة إيجاد عبارات متلعثمة أخرى ينطق بها مع الإشاحة بذراعيه فى الهواء مبررًا ، فوجئ (تاعو) بنفسه يرتفع عن الأرض !

نظر أمامه فى رعب فرأى عينين مشتعلتين كأنهما قطعتين من جهنم ، ووجهًا يبعث مرآه أقصى آيات الهلع فى أوصال أشجع الشجعان ، وذراعين قويين ترفعانه من فوق الأرض إلى أعلى ، ويدين ككلابتين تقبض أصابعهما على عنقه حتى إن وجهه قد ازرق من قلة الهواء ، أما صوته فقد تحشرج فى استجداء ضائع ، بينما هدر فيه (خيان) وهو ينظر إليه بأعلى :

ـ لو سمعتك تنطق بعبارة مماثلة مرة أخرى فلن أتوانى عن قطع لسانك ، وفتح جرحك القديم يا صاح ، وربما ما هو أكثر .. هل هذا مفهوم ؟!

هز (تاعو) رأسه بالإيجاب رغم انتفاضه معلقًا فى الهواء كأنه شاة تم ذبحها وتلفظ الآن أنفاسها الأخيرة ،

فما كـان من (خيان) إلا أن ألقاه أرضًا على مسافة قريبة مشيحًا عنه بوجهه ..

أنّت عظام (تاعو) من أثر السقطة وأخذ يسعل متحسسًا عنقه كأنه لا يصدق أنه نجا، واستدار (خيان) معطيًا ظهره له لاهثًا كأنه سينفجر بالغضب، فى حين جاهد (تاعو) لأن يجمع شتات الكلمات على شفتيه الجافتين :

ـ أنت ملكنا يا (خيان)، ولست فى حاجة لشهادة منى أو من غيرى بهذا .. أنت آخر سلالة ملوك الرعاة والجميع يعرف هذا ..

زمجر (خيان) :

ـ أجل .. ملك ويتناول هذا، وهذا !

وركل بقدمه قدر الطعام وإناء الماء لتنسكب محتوياتهما على الرمال العطشى، فشعر بتحسن نسبى ساهمت فيه كلمات (تاعو) اللينة وهو يتحامل على بنيته القوية حتى ينهض واقفًا من جديد، غير عابئ بالرمال التى تملأ سراويله :

ـ إننا ندخر كل أموالنا وثرواتنا من أجل العودة يا (خيان)، أعنى يا جلالة الملك (خيان)، ونربط الأحجار على بطوننا حتى تعود لتهنأ بعرش (طيبة)، وحتى يعود الرعاة رمزًا للنصر بعد سنوات الهزيمة والشتات الطويلة .. لعلك لم تنس هذا بعد !

قال (خيان) من بين لهاثه، دون أن يلتفت لمواجهة (تاعو) :

ـ أنسى ؟! وهل يمكن أن أنسى يا (تاعو) ؟!

وخفض عينيه إلى الطعام والمياه التى شربتها الرمال فى نهم، ليقول بلهجة مريرة :

ـ السؤال هو : حتى متى ؟! تمر السنوات ويذوى حلم العودة، حتى أومن أحيانًا أن المقدور هو ابتلاع الصحراء لأحلامنا ..

فوجئ (خيان) بيد (تاعو) تربت على كتفه، فاستدار إليه بعنقه ليجده يقول باسمًا :

ـ لم يبق إلا القليل جدًا، أنت أعلم منا بهذا ..

غمغم (خيان) متهكمًا :

ـ من يدرى ؟!

وقطع حوارهما النداء الطفولى من وراء الخيمة التى يجلس أمامها (خيان) :

ـ أبى .. أبى ..

نظرا إلى جهة الصوت ، كان صبيًا على حافة البلوغ يعدو نحوهما ، ملوحًا بيده ، هاشًا بملامحه التى تحمل الكثير من ملامح (خيان) ، ولا يقل عنهما قذارة واغبرارًا ..

ـ ما الأمر يا (ماى) ؟!

سأل (خيان) مقطبًا ، فتوقف أمامه الصبى يلهث ، ويقول بصدر يعلو ويهبط :

ـ الجدة الكبيرة يا أبى ..

قطب (تاعو) بدوره :

ـ (رناوى) ؟!

صاح (خيان) ، بلهجة من لا ينقصه مزيد من الحنق :

ـ ما بها ؟! هل هذا يوم مناسب لكى تموت وقد عمرت إلى ما فوق المائتى عام ؟!

هز الصبى رأسه يمنة ويسرة فى سرعة متلهفة ، وهو يجاهد لالتقاط أنفاسه ، ثم قال :

ـ كلا ، كلا إنها لم تمت .. بل تريدك يا أبى ..

همس (تاعو) بحيث لم يسمعه أحد إلا نفسه :

ـ هو يوم ليس كبقية الأيام إذن ، إنه يوم مميز جدًا ..

وازداد حاجبا (خيان) تقطيبًا وهو يخاطب ابنه فى غلظة مردها إلى مزاجه المعتل :

ـ وكيف عرفت أنها تريدنى ؟! إنها فاقدة للبصر وللنطق منذ سنوات ، بل وللحركة أيضًا !

هز الصبى كتفيه قائلاً :

ـ لا أدرى ..

صرخ فيه (خيان) :

ـ ما معنى (لا أدرى) هذه ؟! ألست أنت من يقول أنها تريدنى ؟!

ـ لا تصرخ فى الطفل هكذا ..

صوت أنثوى ناعم ، موسيقى ، عذب ، جعل الثلاثة يلتفتون نحوه عند وتد الخيمة ، حيث وقفت شابة يتداخل سواد شعرها الناعم المنسدل فوق ظهرها مع سواد ثوبها الحريرى الأسود فى انسجام مدهش ، وقد أسبلت عينيها الخضراوين الواسعتين فى دلال ، ممسكة بحبل الخيمة بأصابع بيضاء لينة ، وكل ما فيها ينطق بالحسن والجمال ..

كانت ملامحها تشبه ملامح قطة إلى حد كبير ، والحقيقة أن اسمها أيضًا كان كذلك !

ـ وما شأنك أنت يا (باستت)(*) ؟! إنه ابنى ويمكننى أن أفعل به ما أشاء ، ولست أمه على ما أذكر ، فالمسكينة قد ماتت مريضة منذ بضعة أعوام ..

(★) تروى الأسطورة أن ابنة رع (عين شمس) قد غضبت وهربت إلى بلاد النوبة بعد أن تحولت لبؤة ، فلما جرت محاولات صلحها تحولت إلى شكل قطة لودعة ، وفى الحالتين أطلق عليها الاسم (باستت) ، وأقيم لها معبد فى مدينة (بوباسطة) حيث نحتت عشرات التماثيل لها ، بعضها يمثلها فى جسم أنثوى بشرى ورأس قطة ، وبعضها يمثلها وهى ترضع قطيطاتها ويعتقد بعض المتخصصين أن القط قد وفد إلى أوروبا أصلاً عن طريق بلاد الإغريق ، وأن القطط المنزلية القابعة على سقوف المنازل تنحدر أصلاً من سلالة القطط المصرية .

قالها (خيان) فى غيظ وهو يرمقها من حيث يقف دون حراك ، فأشار الصبى نحوها هاتفًا :

ـ خالتى (باستت) هى من أرسلتنى إليك بهذا النبأ يا أبتاه !

عقدت (باستت) ساعديها أمام صدرها الناهد :

ـ ها هو الصبى ما زال يذكر أنى خالته ، شقيقة والدته يا أرمل شقيقتى العزيز ..

لوح (خيان) بكفه فى غضب ، وصاح :

ـ كفى عن هذا يا (باستت) ، لماذا ترسلين (ماى) إلى فى حين أنه يمكنك الحضور بنفسك ؟!

قالت (باستت) وهى تلعب بنبرات صوتها اللينة لتجعلها لينة أكثر ، وترسل بنظرة ذات مغزى إلى (تاعو) الواقف يراقب ما يجرى بينهما فى اهتمام :

ـ إننا عائلة واحدة يا عزيزى .. أليس كذلك ؟!

تنحنـح (تـاعو) واستأذن بـالانصراف لقضـاء شـأن وهمى، وفور اختفائـه هتـف (خيـان) فيهـا، وغضبـه يتعاظم :

ـ كفى عـن هـذا الغمـوض يا (باستت)، ما الذى يجرى ؟! وكيف أخبرتك الجدة (رنـاوى) أنهـا تريـد رؤيتـى فـى حين أنهـا عـاجزة عـن التواصـل مـع أى إنسان ؟!

ابتسمت (باستت) فى مكر حتى بدت كقطة حقيقيـة، وهى تقول :

ـ إلا أنا يا عزيزى، أنت تعلم أننى موهوبة فى عمل أشياء لا يجيدها غيرى ..

اقترب منها (خيان) عدة خطوات، وهو يسأل فـى توجس :

ـ هل مارست سحرك على المرأة العجوز أيضًا ؟!

قالت، وهى تنظر فى عينيه مباشرة :

ـ لا تنس أنهـا هى مـن علمتنى كيف أنمى موهبتى، وكيف أصنع الأشياء التى لا يجيد الكثيرون صنعها وأنا بعد طفلة، قبل أن تفقد نطقها وبصرها وحركتها ..

زفر (خيان) فى ضجر، وقال :

ـ ولماذا تريد الجدة (رناوى) رؤيتى ؟!

هزت (باستت) كتفيها، وقالت :

ـ تعال معى، وأنت تعرف ..

نظر (خيان) إليها مليًا، قبل أن يستدير ليضع الخوذة ذات القرنين فوق رأسه، ويمسك بحربته، مبـادلا ابنـه (مای) بسمة شاحبة، وهو يسأل نفسه فى حيرة :

ـ ترى، لماذا يتطاير شعر (باستت) رغم أن الريـح قد سكنت منذ مدة ؟!

* * *

الحرارة خانقة داخل خيمـة الجدة، والضوء شحيح يتسرب من عدة شقوق علوية فـى الخيمـة، أمـا الجدة

(رنـاوى) فكوم مـن العظـام المرتميـة علـى سـجادة مهترئة بفعل الزمن ..

الوجه غائض ، والعينـان ثابتتـان فى الفراغ ، لا يتحرك فيها إلا الصدر الذى يدخله شهيق ويخرج منه زفير ، ويداها تهتزان وهما ترفعان بصعوبة إناء أسطوانيًا من الفخار ..

جاهد (خيان) ليدارى اشمئزازه من رائحـة العفونـة التى تمـلأ المكـان ، وتسـاءل فـى استغراب تجلـى علـى وجهه تحت غطاء الرأس الكبير :

ـ ما معنى هذا ؟!

انحنـت (باستت) لتحمـل الإنـاء بيديهـا النـاعمتين ، وهى تقول بلهجتها الناعسة :

ـ المعنى واضح كالشمس ، لقد اقترب الوقت بشدة ..

عاد يسألها :

ـ وقت ماذا ؟!

واجهتـه بالإنـاء ، وهـى تقـول لتكشـف بسمتها عـن أسنانها اللؤلؤية اللامعة :

ـ وقت استعادة المجد التليد ، الذى سقط بسقوط آخر حصوننا فى (هواريس) ..

نظر (خيان) إلى الإناء مليًا ، وميز على جانبه نقشًا بلغة قومه ..

نقشًا باسم (تحتمس الثالث) !

ردد :

ـ (تحتمس الثالث) ؟!

قالت (باستت) :

ـ كانت جدتى تحتفظ بهـذا الإنـاء منذ سنين بعيدة ، واليوم فقط أخرجته ..

تساءل (خيان) مبهوتًا ومبهورًا :

ـ وفيم يمكن أن ينفع إناء كهذا ؟!

اتسعت بسـمة (باسـتت) ، وتوهجت أسنانها ببريق أخـاذ :

ـ دع هذا الأمر لـى ، إننـى أجيد فهم هذه الأشياء جيدًا ..

وغمزت قبل أن تضيف :

ـ واستخدامها أيضًا ..

ثم نظرت إلى كومة العظام داخل الثوب الأسود المهلهل ، مردفة :

ـ جدتى علمتنى كل شىء فى زمن مضى ..

خيل لـ (خيان) أن الجدة بملامحها الطاعنة فى تجاعيد الشيخوخة تبتسم ، لكنه نفض المشهد عن مخيلته ، ونظر إلى (باستت) محاولاً ألا يفتنه جمالها كما يحدث دومًا ، وقال :

ـ ما زلت أتساءل عن معنى كل هذا دون أن أجد جوابًا شافيًا ..

ظلت (باستت) تبتسم فى غموض ، وكاد (خيان) أن ينهار أمام سلطان جمالها الباهر وملامحها القططية البريئة والماكرة فى آن واحد ، وطال بينهما الوقت حتى صفق شخص أمام ستار الخيمة المسدل ..

ـ من ؟!

صاح (خيان) ، فأتاه صوت :

ـ (تاعو) !

صاح (خيان) :

ـ ماذا تريد ؟!

ـ لديك ضيف ..

ـ من ؟!

ـ يقول إنه يدعى (سخت) من (طيبة) ، ويرتدى ملابس فرعونية ذات نقوش مميزة ..

اكتسى وجه (خيان) بالاهتمام والإثارة ، وابتسمت (باستت) قائلة :

ـ لقد جاء فى الموعد تمامًا ..

غمغم (خيان) فى توتر :

ـ أتعشم أن يكون قد أحضر ما نريده ..

ـ اذهب إليه ..

قالتها (باستت) ، فنظر إليها (خيان) طويلا قبل أن ينتزع نفسه من أمامها انتزاعًا ، ويغادر الخيمة ، فى

حين التفتت هى إلى الجدة الساكنة وذراعاهـا لا تـزالان مرفوعتين ، وقالت :

ـ كل شىء يتم فى موعده يا جدتى ..

قالتها (باستت) ..

ـ تمامًا ، كما علمتينِى ..

كانت تقف حاملة الإناء الفخارى فى مواجهـة الجدة الجالسـة علـى السـجادة المهترئـة ، وبهـدوء سـحبت (باستت) كفيها من أسفل الإناء ، وظل الإناء معلقًا فـى الهواء كأنه مربوط بحبل خفى ، يمتد ما بين يديها ..

ويدا الجدة (رناوى) المرفوعتان لأعلى ، مواصلتان الاهتزاز العنيف إلى حد التشنج !

* * *

فى منتصف الخيمـة المتواضـعة ـ أو الوضـيعة للدقة ـ وقف الرجل الملثم الذى يرتدى ملابس فرعونية ذات نقوش مميزة ، بحيث لا يظهر من وجهه إلا عيناه الضيقتـان ، ينظر فيما حوله فى ضجر متململ ، حتى ارتفع الستار

أخيرًا عن مدخل الخيمة ليبرز من خلفه (خيان) بجثتـه الضخمة وغطاء قرنى الثور على رأسـه ، ومـن ورائـه (تاعو) بجذعه العارى وسراويله الأسود الطويل ..

ـ سبع أم ضبع يا (سخت) ؟!

تساءل (خيان) فى مواجهة الرجل الملثم باللغة المصرية التى يجيدها جيدًا ، فأجابه الرجل من وراء اللثام بنفـس اللغة :

ـ أتيت لك بما طلبته يا (خيان) ..

تجاهل (خيـان) رنـة الاستخفاف فى لهجة محدثه ، وتساءل غير مخف لهفته :

ـ أين هو ؟!

ربـت (سـخت) براحتـه علـى صـدره المنتفـخ ، وقـال :

ـ اتفقنا على أن أقبض الثمن أولاً ..

صاح (خيان) مستهجنًا :

ـ لقد أخذت الكثير من هذا الثمن حتى الآن ..

ـ وما زال هناك الكثير بعد لآخذه ، كان هذا اتفاقنا منذ البداية ..

حاول (خيان) أن يهدئ من فوران دمه ، قائلاً فى صبر :

ـ ستأخذ كل ما اتفقنا عليه ، لكن دعنى أرى الرداء أولاً .. ألا تأمننى يا رجل ؟!

بلغت رنة التهكم فى لهجة (سخت) ذروتها ، وهو يقول مضيقًا عينيه الضيقتين أكثر :

ـ ومن هذا الذى يمكن أن يأمن لأحد الرعاة ؟! فما بالك بملكهم شخصيًا ؟! لست غرًا ولا تفترض بى الغباء يا (خيان) ..

ـ ليكن ..

قالها (خيان) فى نفاد صبر وهو يرفع كفيه لأعلى ، ثم إنه فرقع بإصبعيه لـ (تاعو) الذى امتثل للإشارة على الفور ، وهرع إلى جانب مظلم من الخيمة ليعود منه حاملا صندوقًا خشبيًا متوسط الحجم ، وتقدم من

(خيان) الذى فتحه فى مواجهة (سخت) ، لينعكس التماع الذهب على صفحة وجهه ، التى نطقت بالشوق ..

وبالجشع ..

ـ هات ، وخذ فى نفس الوقت ..

أتبع بها (خيان) ، فما كان من (سخت) إلا أن مد يده إلى صدره مخرجًا لفة من الكتان ، ناولها إلى (خيان) فى نفس اللحظة التى حمل فيها الصندوق بكل ما يحويه من ذهب ، وبينما غاب (سخت) فى تأمل البريق الأصفر ، سارع (خيان) بفرد اللفة ليظهر كنهها ..

رداء من الكتان ، منقوش بخيوط ملونة لامعة ، لا يبدو أنيقًا إلى هذا الحد ، ولم تكن ملامح (خيان) أقل انبهارًا واحتفالية وهو يتأمل الثوب البسيط ، من ملامح (سخت) الذى أخذه مرأى الذهب إلى خيال مترف بعيد ..

ـ هذا هو الرداء المطلسم إذن ..

غمغم بها (خيان) مأخوذًا، بينما تجرأ (تاعو) على التعليق :

ـ يبدو رداء عاديًا تمامًا ..

عاجله (سخت) بالقول :

ـ لكنه ليس كذلك، سترى بنفسك عند التجربة ..

ثم إنه أغلق صندوق الذهب، وحمله تحت إبطه مواصلاً :

ـ الآن أستأذنكما فى الانصراف ..

حول (خيان) بصره من الرداء إليه، وقال ببسمة زحفت إلى محياه المغبر أخيرًا ؛ بعد غياب طويل :

ـ ألن تتناول معنا شيئًا كعربون محبة أو صداقة ؟!

ـ كلا ..

قالها (سخت) فى حسم باتر ..

ـ ما الذى يضمن لى أنكم لن تقدموا طعامًا مسممًا ؟!

ضحك (خيان) ملء شدقيه، الأمر الذى أدهش (تاعو) بشدة، فهو لا يذكر أبدًا متى رأى الرجل يضحك آخر مرة، لكن المؤكد أنه زمن بعيد جدًا ..

ضحك (خيان)، ثم قال :

ـ لا تخف يا عزيزى (سخت) .. إننا لا نلوث أيدينا بدماء الغرباء فى مضاربنا أبدًا ..

ظهرت تقطيبة (سخت) من وراء اللثام جلية :

ـ ما الذى تعنيه يا (خيان) ؟!

كان الرد المتوقع :

ـ لا شىء، تفضل بالرحيل يا سيدى ما دمت لا تريد أن تتلقى واجب الضيافة ..

انسل (سخت) خارجًا فى سرعة كأنه يهرب من شىء ما، وفى الخارج دوى وقع سنابك حصانه الذى انطلق يعدو كأنه يهرب من شىء ما، أما فى الداخل فقد كان (خيان) ينظر إلى الثوب مليًا بين يديه كأنه لا يصدق

أنه قد حصل عليه أخيـرًا ، وقـال مخاطبًا (تاعو) دون أن ينظر إليه :

ـ تعرف ما ستفعله حتمًا ..

ـ بالتأكيد ، سيكون كل شىء على ما يرام .. اطمئن تمامًا يا (خيان) ، أعنى يا جلالة الملك ..

وعاد (خيان) ليغيب فى تأمل الرداء تمامًا ..

بعد وقت لم يطل ، كـان (سخت) الـذى تعلـق لثامـه المحلول علـى صخـرة كبيرة ، كاشفًا عن وجـه رفيـع شاحب ، ورأس حليق ، يرقد على الرمال التـى تتشـرب دماءه النازفة سالبة إياه القوة والحياة ، من ثقب صنعه رمح مغروس فى جانبه الأيسر بكل قوة ..

ومـن بعيـد كـان حصـانه ينطلق فى اتجـاه الشرق ، على متنه فارس يصعب استبيان وجهـه ، بينمـا تسـهل ملاحظـة صـدره العـارى وسـراويله الرمـادى الطويـل ، والأهم أنـه يحمـل تحت إبطـه صنـدوق الذهب ، وفـى خصـره الغمـد الـذى يحـوى سـيفًا ملوثًـا بدمـاء (سخت) ..

نظـر (سـخت) إلـى الحصـان المختفـى عنـد سـراب الأفق ، وهو يعض شـفتيه ندمًـا ، بينمـا حياتـه تتسـرب منه رويدًا رويدًا ..

كان يفكر أنه يستحق هذا ، وأكثر ..

فالموت ، هو الجزاء الوحيد الذى يستحقه من يرتكب الجريرة الكبرى ..

الخيانة !

* * *

٢ـ قـــــوة ..

تسللت أشعة الفجر من جنبات الأعمدة الضخمة فى صحن المعبد ، وزقزقت العصافير الطائرة فى تكوينات بديعة حيث يمكن رؤيتها من خلال سقف المعبد المفتوح للسماء ، بينما خبت جذوات النيران ـ أو كادت ـ على قمم المشاعل المعلقة فى مكامن الجدران الحجرية الحافلة بسطور الحفر والنقوش والطلاسم والرسوم الملونة ، والملك (تحتمس) يندفع داخلا إلى المكان ، ومن خلفه رجل الإمبراطورية الثانى (رخميرع) ؛ وزيره الأول وذراعه اليمنى ، ثم رهط من الحراس والكهنة لا يتجاوز عددهم أصابع اليدين ، وعلى قسمات الجميع تتجلى أقصى آيات الاهتمام والجدية ..

توقف الملك (تحتمس) أمام منضدة خشبية وطيئة فتوقف الحشد من خلفه ، وأخذ الملك ينظر فى كراهية ونفور إلى أكوام اللحم المفرى والعظام المتراصة أمامه على المنضدة ، وقد عف عليها الذباب ، وتحللت فى غير موضع ، مثيرة رائحة فظيعة ..

بعد صمت تساءل (تحتمس) وخلجاته ما زالت تنطق بالمقت ، مشيرًا بسبابته إلى المنضدة وما عليها :

ـ أهذا هو (سخت) ؟!

قال (رخميرع) وهو يضع كفًا على أخرى :

ـ بقاياه يا جلالة الملك .. نعم ، هذه بقايا رجلك الهارب (سخت) ..

غمغم (تحتمس) :

ـ ما الذى كان ينقصه ؟! كان كاهنًا ورجل دولة من الطراز الأول ، يملك أراضى ومنزلاً وزوجة وأولادًا ، ما الذى دفعه للخيانة ؟!

قال (رخميرع) هازًا كتفيه :

ـ لا تبرير للخيانة يا مولاى .. لقد هجرته زوجته آخذة أطفاله والكثير من أمواله ، ولاحقته الديون بعدما خسرت تجارته مؤخرًا ، كما أن سجله الوظيفى يشير إلى انخفاض مريع فى المستوى ، غير أن كل هذا ليس مبررًا للخيانة ، كل سقطة يمكن النهوض منها ، لكن ليس بسقطة جديدة أفدح وأقسى ..

حاول (تحتمس) أن يقترب محاولاً تمييز أى ملمح فى الكومة المقززة أمامه :

ـ هل أنتم واثقون من أنه هو ؟!

هز (رخميرع) رأسه بالإيجاب :

ـ كل الثقة يا مولاى ، تعرفنا عليه من خلال بقايا ملابسه الكهنوتية المميزة التى لم تستطع الطيور الجارحة التهامها كما فعلت بوجهه وصدره و ...

قاطعه (تحتمس) صائحًا فى غضب :

ـ إنه لا يستحق نظرة رحمة أو لمسة شفقة ، لا تحنطوا بقاياه ولا تلفوها بلفائف الكتان ولا تدفنوها حتى فى مقابر الفقراء .. ألقوا بها للحيوانات المفترسة التى لا تأنف من أكل الجيفة ، لعلها تصاب بالتسمم فنتخلص منها كما تخلصنا من هذا الخائن !

أحنى (رخميرع) رأسه فى إذعان وتبجيل :

ـ سمعًا وطاعة يا مولاى الملك ..

ثم إن (رخميرع) فرقع بإصبعيه فى الرهط الواقف خلفه كأن على رءوسهم الطير ، فتقدموا من المنضدة

شارعين فى أداء مهمتهم ، بينما استدار (تحتمس) وعاد إلى الجهة التى أتى منها ، يتبعه (رخميرع) متأخرًا عنه بخطوة أو اثنتين ..

ـ إنه هو إذن من قوّى شوكة الرعاة المرابطين فى الغرب .. أليس كذلك ؟!

ـ بلى يا مولاى الملك ، التصور المنطقى يقول إنه هو من سرق الرداء وأعطاه لهم ، وفى الغالب هم من قضوا عليه لما هو معروف عنهم من غدر ، فى الغالب حتى يوفروا على أنفسهم ثمن خيانته ..

زفر (تحتمس) ، قائلاً فى حرارة :

ـ ثمن الخيانة خيانة .. حقًا !

قال (رخميرع) كأنه لم يسمع تعليق مليكه ، متحدثًا فى لهجته العملية الرصينة :

ـ الغريب أن هؤلاء المجانين يتصورون أنهم قد امتلكوا العالم فى أيمانهم ، فقد أرسلوا مبعوثهم بالأمس برسالة تطلب تسليم عرش البلاد إليهم من جديد ، بالتحديد لذلك الذى يدعى أنه آخر أحفادهم ، وأنه الامتداد الطبيعى

لحق عائلته فى حكم النصف الشمالى من مملكتنا .. كل هذا بسبب امتلاكهم لهذا السلاح التافه !

توقف (تحتمس) عن السير بغتة ، فتوقف على إثره (رخميرع) بحركة رد فعل منعكس ، ليفاجأ بالملك ينظر إليه فى جمود ، قائلاً بلهجة خفيضة ورهيبة فى آن واحد :

ـ ليس سلاحًا تافهًا يا عزيزى (رخميرع) .. صدقنى ، أنا أعلم ما أقول ..

تساءل (رخميرع) بنبرة على نفس المستوى من الانخفاض ، وعقله يعجز عن إدراك الأمر فى صورته الكلية :

ـ هل معنى هذا أنهم يستطيعون فعلا أن يستعيدوا العرش عن طريقه ؟!

تنهد (تحتمس) ناظرًا إلى الأرض ، وقال :

ـ ليس إن فكرنا فى طريقة لاستعادته .. طريقة غريبة ولا تخطر على بال أحد ..

ظل (تحتمس) على وضعه فى صمت طويل ، حتى بادره (رخميرع) بعد أن هداه التفكير إلى :

ـ هل نستعين بجنود (لوتس) ؟!

ضيق (تحتمس) عينيه :

ـ هذا أول ما فكرت فيه ، لكن .. ستكون مهمة جديدة عليهم تمامًا ، مهمة ليست كبقية المهام على الإطلاق ، يا عزيزى (رخميرع) !

* * *

فى نفس الوقت ، حيث الشمس تجاهد لكسر زجاج الفجر حتى تخرج من غبش الليل ، كان (خيان) يجلس على صخرة قريبة من مضارب عشيرته ، يراقب الخيام فى تأمل منتش ، ويعب من قربة مليئة بالخمر ، ويحلم بنفسه ملكًا جديدًا على عرش (أواريس) ، بقرنى الثور على رأسه ، وبالذهب الذى يكسو ملابسه السوداء الجديدة بدلا من تلك الأساور الصدئة وملابسه الحالية التى حيل لونها وتمزقت بأيدى الصحراء الخشنة ..

سيكتب التاريخ أنه هو من أعاد المجد إلى حياة الرعاة مجددًا ، بعد سنوات طويلة من التشرد بين البلاد والفيافى ، يتجرعون هزيمة الآباء والأجداد ، ويحلمون بالعودة ..

ـ أليس الوقت مبكرًا بعض الشىء ؟!

أتاه الصوت من الجوار ، لكنه لم يفزع ..

صوت أنثوى ناعم موسيقى وعذب ، صوت (باستت) ..

التفت إليها ، ولم يندهش هذه المرة لشعرها وثوبها المتطاير دون هواء ، فقد كان فى مزاج أعلى من أن ينتبه لمثل هذه الصغائر ، وكان يروق له أن يتأمل فى جمالها الفتاك ، وهو يقول محاولاً التظاهر بأن الخمر لم تسكره :

ـ يجب أن أعتاد على هذا فى المرحلة القادمة ، فقد ذهبت أيام الدعة والرخاء وأمامى طريق طويل لابد أن أكون متنبهًا حتى أبلغ نهايته ..

قالت فى تهكم ، وهى تسمعه يتحدث عن (التنبه) فى حين أن كل ما فيه ينطق برائحة الخمر الرديئة التى يدمنها :

ـ لا أتحدث عن استيقاظك مبكرًا ..

قال مشيحًا برأسه عنها ، ورافعًا الرقبة ليعب منها مجددًا :

ـ عم تتحدثين إذن ؟!

قالت فى لهجة واثقة ، وهى تجلس إلى جواره :

ـ أنت تعلم ..

لم يجبها وأخذ يعب من القربة ، فأردفت :

ـ الرسالة التى أرسلتها إلى الملك (تحتمس) ، ألم يكن الوقت مبكرًا لكى ترسلها ؟!

توقف عن العب ، ونظر إليه غير مخف دهشته التى حملها سؤاله بفيه مفغور :

ـ وكيف عرفت بأمرها ؟!

بسمتها الساحرة :

ـ مازلت تسأل هذا السؤال !

قال فى حماس ، لم يفلح فى إخفاء النبرة المهتزة التى تجول فى أحباله الصوتية :

ـ طوال الأعوام التى مضت من عمرى ، وهى أعوام لم تكن قليلة ، وأنا أنتظر هذه اللحظة .. لماذا تريدين إفسادها على يا (باستت) ؟!

قالت مشيرة إلى الخيام المنتصبة فى العراء الفضى تحت أشعة الفجر الشاحبة :

ـ لا أريد أن أفسد شيئًا ، لكن .. ألم تتسرع قليلا فى المطالبة بالعرش ونحن ما زلنا عشيرة صغيرة لا نزيد عن العشرات ؟!

قال :

ـ ألم تنبهك حواسك الخارقة إلى أننى قد أرسلت إلى كبار عشائر الرعاة الأخرى أيضًا ، أطلب منهم أن يلتئم شملنا تحت قيادتى بحيث نضرب جميعًا ضربة رجل واحد ؟!

قالت :

ـ هذه عرفتها ، لكن من أخبرك أنهم سيستجيبون بهذه البساطة ؟!

ـ من منا لا يحلم بالعودة يا (باستت) ؟!

ـ ليس الحلم بكاف ، ولا الرداء أيضًا !

ـ امتلاكنا للرداء إشارة بأن نبدأ ليس إلا ، ظننتك تفهمين لغة الإشارات ..

ـ أخشى فقط أن ...

قاطعها :

ـ لا تخشى شيئًا ..

وتألقت عيناه المحتقنتان ، وهو ينظر بهما إلى السماء :

ـ سنعود ، سنعود قريبًا جدًا ..

* * *

الصومعة غارقة فى الظلام برغم أن الشمس ما زالت فى السماء ، وفى المنتصف جذوة نار مشتعلة تنبعث منها رائحة بخور زكية ، لكنها تزيد من غموض المكان ومن غرابته ..

ـ تريد أن تتزوج إذن .. هه ؟!

قالها الكهل الطاعن فى السن ، ذو اللحية البيضاء الكثيفة والطويلة التى تحتل الجزء الأكبر من صدره ، والحاجبين الكثين ، والرداء الأبيض الطويل ، الجالس أمام الجذوة القرفصاء ، وقد فتح عينيه الغائبتين فى المعتاد عن الدنيا كلها ليحدج الشاب النحيل ذا اللحية

الخفيفة والعينين الخضراوين بنظرة مستفهمة يلوح فيها شىء من اللوم ..

اتسعت عينا (محب) دهشة عندما سمع السؤال، وهتف دون وعى منه :

ـ هل قالت لك (نفرو) أننى ...

وفطن إلى الطريقة التى يتكلم بها، فبتر العبارة، وقال :

ـ عذرًا، أعنى هل أدلت (نفرو) بما دار بيننا ونحن عائدون من أرض الأقزام يا معلم (تحوت) ؟!

قال المعلم (تحوت) دون أن تهبط عيناه من فوق وجه (محب) :

ـ كل شىء يمكن أن يُعرف بطريقة أو بأخرى يا زهرة اللوتس ..

غمغم (محب) لنفسه :

ـ وأنا الذى ظننت أن استدعائى وحدى دون (حورى) هذه المرة هو المدعاة الوحيدة للدهشة!

وهز كتفيه، قبل أن يقول بصوت مسموع متصنعًا اللامبالاة :

ـ كل ما فى الأمر أننى عرضت عليها الأمر وردت هى بأنها لا تدرى ..

قال المعلم (تحوت) دون أن تهبط عيناه من فوق وجهه :

ـ أليس لكل شىء وقت وطريقة ؟! ألم أعلمك هذا فى صغرك يا فتى ؟!

ـ بلى ..

قالها (محب) فى أسى مطرقًا، قبل أن يعود إلى قناع البساطة المصطنعة، ويقول :

ـ لكنى لم أطق صبرًا على الانتظار أكثر يا معلمى ..

صمت المعلم مليًا، وظلت عيناه مصوبتين إلى وجه (محب) الذى بدأت حصونه الدفاعية فى الانهيار، وقال فى لهجة من يدافع عن تهمة لم توجه إليه :

ـ هل أخطأت يا معلم (تحوت) عندما فكرت فى الزواج ؟! حتى الكهنة يتزوجون .. ألم تعلمنا فى الصغر أيضًا تعاليم الحكيم (بتاح حتب) الذى قال : (إذا كنت عاقلا فأسس لنفسك بيتًا) ؟! ألم تعلمنا أيضًا حكمة (آنى) الذى قال ناصحًا ولده : (اتخذ لنفسك زوجة وأنت شاب لترزق منها بولد) ؟!

قال المعلم (تحوت) ، كأنما لم يسمع منه شيئًا :

ـ الوقت .. والطريقة ..

ثم أضاف بعد هنيهة :

ـ والصداقة !

اتسعت عينا (محب) دهشة للمرة الثانية ، وهو يهتف :

ـ (حورى) ، أتعرف أيضًا أنه ... وأنها ...

لم يجد (محب) ما يكمل به العبارة ، وفوجئ بالمعلم (تحوت) يغير الموضوع تمامًا :

ـ ستذهبان معًا فى مهمة جديدة ، ربما تعلمت خلالها شيئًا جديدًا ..

أشار (محب) بإصبعيه السبابة والوسطى :

ـ أنا و(حورى) فقط ؟!

ثم البنصر :

ـ أم ستكون هى معنا ؟!

تجاهل المعلم (تحوت) السؤال والجواب :

ـ ستجده منتظرًا إياك فى الخارج على عربة بحصانين .. ستعبران البر الشرقى وهناك سيفهمكما الملك نفسه ما ستفعلانه ..

ـ لكن ...

كاد (محب) أن يتكلم ، لكن المعلم (تحوت) أغلق عينيه وغرق فى الصمت والتأملات ..

وكان هذا إيذانًا له بأن ينصرف .. على الفور ..

* * *

ـ مهمتكما هذه المرة بسيطة جدًا ..

قالها الملك (تحتمس) من جلسته على العرش ، وهو ينظر إلى (حورى) و(محب) الواقفين أمامه فى بهو الحكم ، يستمعان إليه باهتمام ، أو أن هذا ما يبدو عليهما على الأقل ..

ـ ورسمية جدًا كذلك !

أتبع (تحتمس) بها ملوحًا بصولجانه ، فانعقد حاجبا (حورى) على الفور ، بينما لم يبد على (محب) أى تبدل فى جمود ملامحه ، الذى كان يخفى خلفه ـ فى الواقع ـ شروده وقلة تركيزه ..

تساءل (تحتمس) عندما لمح تقطيبة (حورى) ، مخاطبًا إياه ببسمة جانبية :

ـ هل يبدو كلامى غريبًا إلى هذا الحد أيها الجندى ؟!

قال (حورى) ، فى ثبات :

ـ سأنتظر حتى أعرف المهمة أولاً قبل أن أدلى برأيى فيها يا مولاى الملك ..

اتسعت بسمة (تحتمس) :

ـ تعجبنى جرأتك ، فهى تذكرنى بنفسى فى صباى ..

ثم إنه فرقع بإصبعيه فتقدم حارس من جهة المدخل يحمل لفافة من البردى ، ناولها للملك فى إجلال ثم عاد إلى موقعه ، فى حين لوح الملك باللفافة فى وجهى (حورى) و(محب) ، وهو يقول :

ـ كل ما عليكما هو أن تحملا هذه الرسالة السرية إلى إحدى عشائر الرعاة فى صحراء الشرق ، وأن تسلماها إلى كبير العشيرة ، ملكهم (خيان) باسمى شخصيًا ، هذا دون أن تفتحا الرسالة ودون أن تتطلعا على تفاصيلها مطلقًا ..

ظل (حورى) مقطبًا ، وظل (محب) شاردًا بوجه جامد ، فسأل (تحتمس) وهو يخفض من يده الممسكة بلفافة البردى ، ويوسّع من بسمته أكثر :

ـ الآن ، هل لديك ما تقوله أيها الجندى الجرىء ؟!

ـ لدى ..

ـ أسمعنى ..

ـ ألا يبـدو غريبًا أن يسند جلالتك إلينـا هذه المهمـة دون العشرات مـن موظفى القصر والسفراء والخبراء والكهنة ؟!

ـ هل تريد أن تسمع جوابًا ؟!

ـ إن كان هناك واحد يقنعنى !

لم تزل بسمة (تحتمـس) الـذى راق لـه أسـلوب (حورى) المندفع فى غير حرص ، وتبرع بالإجابة فـى هدوء :

ـ أولاً : أنتما تتمتعان بكل ما يمكن أن يتمتع به أكبر موظفى القصر لدى ، تجيدان لغـة هؤلاء القوم ويمكـن أن أثق فى كونكما سـفيرين فوق العادة ، وثانيًا : من يمكـن أن أرسل سـواكما فـى مهمـة يمكـن أن تكـون محفوفة بالمخاطر مثل هذه ؟!

تساءل (حورى) مضيقًا عينيه :

ـ أى نوع من المخاطر يا جلالة الملك ؟!

قال الملك :

ـ لعلك درست الكثير عن الرعاة الذين قاموا بغزو بلادنا منذ سنين بعيدة ، مستغلين ضعف البلاد وانشقاق الحكام ، وكيف أنهم عاثوا فى أراضينا فسادًا وذبحوا الفرسان وقتلوا النساء والأطفال وخربوا المدائن وبثوا سموم معبودهم (ست) فى كل الأنحاء ، صحيح أنهم علمونا فنونًا جديدة من القتـال العسكرى وأخذنا عنهم العجلة الحربية مثلا ، لكن ضررهـم كـان أكبر مـن نفعهم ، وبعد سنوات طويلة استطعنا الانتصار عليهم وإخراجهم إلى الصحراء مهزوميـن علـى يـد أبطـال التحريـر (سـكنن رع) و(كـاموس) و(أحمـس) ..

هـؤلاء القـوم مقـاتلون صنـاديد وفـى الوقـت نفسـه لايتورعون عن ارتكـاب أشنع الجرائم واتخـاذ أسـوأ الخصال من أجل تحقيق أغراضهم مثل الخيانـة والغدر والخداع وغيرهـا .. مهمـة كهـذه ، أليسـت محفوفـة بالمخاطر من وجهة نظرك ؟!

ـ وهل سنذهب وحدنا ؟!

ند السؤال عن (محب) الذى نطق أخيرًا ، فنظر إليـه (تحتمس) باستفهام ، فى حين ارتسم الحـرج ممتزجًا بالامتعاض علـى وجـه (حـورى) الـذى أشـاح بوجهـه جانبًا ..

ـ ماذا تعنى ؟!

تساءل الملك ، فأجاب (محب) :

ـ كنت أتساءل عن زميلتنا الثالثـة التـى تخـرج معنـا فى المهام دائمًا ..

هز الملك رأسه يمنة ويسرة قائلاً فى حيرة :

ـ لا أدرى عما تتحدث !

ثم إنه قال :

ـ ستضع هذه المهمة حدًا لكثير من المضايقات التـى يقوم بها الرعاة علـى حدودنـا هذه الأيـام ، إلـى درجـة أنهم قد سرقوا شيئًا من أهم ممتلكات المعبد ، ويهددونا باستخدامه لاستعادة عرش البلاد بعد عشرات السنين من هزيمتهم ..

تساءل (حورى) :

ـ وما هو هذا الشىء ؟!

قـال الملـك (تحتمـس) ، فى ثقـة لـم تتـواءم مـع ما ينطق به :

ـ رداء من الكتان ..

اتسعت عينا (محب) ، هاتفًا فى ذعر :

ـ الرداء المطلسم ؟!

ـ يبدو أننا قد أثرنا انتباهك أخيرًا للمشاركة فى الحديث أيها الجندى الشارد ..

قالها (تحتمس) باسمًا ، فتضرج وجه (محب) بحمرة الحرج ، وهو يقول :

ـ عذرًا يا مولاى ، لم أكن شاردًا إلى هذا الحد ، لكن .. هل سرقوا الرداء المطلسم حقًا ؟!

قال الملك (تحتمس) :

ـ يبدو أنهم يدرسونكم أسرار الكهنوت جيدًا فى معبد (لوتس) .. نعم ، هو الرداء المطلسم الذى سرقوه وينوون استخدامه ضدنا ..

تساءل (حورى) ، وصدره يغلى :

ـ هل يعنى هذا أن علينا استعادة الرداء ؟! أم أن علينا تسليم الرسالة والعودة فقط ؟!

تبسم (تحتمس) فى غموض ، وقال :

ـ لا فارق بين المهمتين إن أردت الحقيقة !

عاد (حورى) يتساءل :

ـ وما معنى هذا ؟!

ازدادت بسمة (تحتمس) غموضًا فوق غموض ؛ إذ أجابه :

ـ ستفهم كل شىء عندما تسلم رسالتى إلى (خيان) .. وليس قبلها !

ثم إنه مد يده بالرسالة نحوهما مكملا :

ـ أشدد مرة أخرى على ألا تفتحا الرسالة قبل أن تصلا إلى هناك ، وإلا .. أنتما الجانيان على نفسيكما ..

تقدم (حورى) بضع خطوات ليتناول الرسالة ، وهو ينظر إليها بقلب خفاق ..

ـ هيا ، انطلقا .. فأمامكما مسيرة يومين على الأقل فوق صهوة جواد قوى للوصول ..

غرق (حورى) فى تأمل الرسالة التـى قبض عليها بأصابعه، وهو يتساءل عن معنى كل هذا، فى حين كانت إحـدى عينـى (محـب) تتخيـل مظهـر الـرداء المطلسم الذى درسه بعمق فـى معبد (لوتـس) وتمنـى أن يراه يومًا ..

بينما العين الأخرى لا ترى سواها ..

(نفرو)، الجميلة ..

* * *

٣ـ بعثـــة ..

ـ لست أصدق ما يحدث!

فوجئ (محب) بـ (حورى) ينطق بها، وهما يعدان العدة للسير على الجوادين مرة أخرى، بعد ليلة قصيرة من الراحة فى الصحراء، وقد لاحت تباشير أول النهار عند الأفق ..

أطلـت النظـرات المستفسـرة مـن عينـى (محـب) المندهشتين، فسـارع (حـورى) يفسر وشبح بسـمة غاية فى الشـحوب يلـوح على ملامحـه الحـادة، الأمر الذى ضاعف من دهشة (محب)؛ فهو لم يعتد على أن يبادره صاحبه بالحديث أبدًا، فضلا عن أن يبتسم:

ـ طوال أمس ونحن فى الطريق لم تنطق بكلمـة واحدة، هل أنت مريض يا صاحبى؟!

و(صاحبى) أيضًا؟!

هذا يوم غريـب، هكذا فـكر (محـب) قبل أن يزيـح أفكاره جانبًا، ويقول مرتبكًا:

ـ لا شىء ، بالى مشغول ببعض الأفكار لا أكثر ..

اكتسبت بسمة (حورى) مغزى ما وهو يقفز بمهارة ليستوى على ظهر الجواد :

ـ لا تشغل بالك كثيرًا ، هذا أفضل لك ..

نظر إليه (محب) فى عمق ، قبل أن يسأله :

ـ هل لهذا معنى ما ؟!

هز (حورى) كتفيه ، قائلاً وهو يتحاشى النظـر إلـى صديقه :

ـ ليس أكثر من ألا تشغل بالك كثيرًا ..

ومضى (حورى) بحصانـه الهوينـى، فسارع (محب) ليستوى على ظهر الجواد الخاص به بصعوبة ، ولكزه فى بطنه مرارًا حتى يستطيع اللحاق بـ (حورى) الـذى انطلق علـى مقربـة منـه ، وبمجرد أن أصبـح بحذائـه سأله :

ـ بالمناسبة ، لماذا تظنهم لم يرسلوها معنا هذه المرة ؟!

أجابه (حورى) بسؤال مقتضب دون النظر إليه :

ـ (نفرو) ؟!

قال (محب) دون أن تبدو على نبراته علامات مزاح :

ـ لا أتحدث عن أمى بالطبع !

ـ من يدرى ؟! ربمـا ظهرت فـى أى لحظـة ، وربمـا وجدناها عند المكان الـذى نبغـى الوصـول إليـه ، حـدث هذا كثيرًا من قبل ..

ـ قلبى يحدثنى أن هذه مهمة مختلفة بعض الشىء ..

ـ من حيث أنها لن تظهر مثلا ؟!

ـ ربما ، وربما لا أراها مرة أخرى أبدًا ..

ـ لا أدرى ، ولكن لا أعتقد هذا ..

والتفت (حورى) إلى (محب) ، معقبًا :

ـ ما أدريه أن عليك أن تريح نفسك مـن همومهـا الثقيلـة يا صديقى ..

(صديقى) بعد (صاحبى) ، إنه حقًا يوم حظى ..

هكذا فكر (محب) قبل أن يلتفت إلى (حورى) ، سائلا :

ـ وهل لهذه النصيحة بدورها معنى أكبر مما يبدو عليها ؟!

قال (حورى) باسمًا ، وهو ينظر إلى الأمام :

ـ كفاك أسئلة ، كل ما أعرفه هو أن عليك أن تريح نفسك ..

(حورى) اليوم ليس على ما يرام ، يقول كلاما ملغزا ويعيد العبارة مرتين وينعته بألفاظ حميمية ويبتسم أكثر من مرة ، والأغرب أن الآية قد انقلبت ، فبدلا من أن يتقمص (محب) دور الثرثار ويستمع (حورى) بنصف أذن ، ها هو ذا (حورى) الذى يتحدث ويتحدث :

ـ لقد اقتربنا ، يمكن أن نصل قبيل الظهيرة .. ترى ، ماذا يمكن أن تحوى الرسالة التى نحملها ؟! هل هى مسحورة مثلا بحيث تبطل مفعول الرداء ؟! أم أن هناك أمرًا ما نعجز عن تصوره ؟! هيا .. فكر معى ..

.. بينما (محب) صامت كتمثال ، يحاول أن يفهم سر غرابة ما يحدث ، ويعجز عن تصور ما يمكن أن تئول إليه الأمور فى المستقبل القريب ..

* * *

تحت شمس الظهيرة التى يلين لها الحديد وقف الرجال المرهقون بخوذاتهم التى تنبع منها قرون الثيران ، وبأرديتهم الرمادية ـ كانت سوداء لكنها شحبت بفعل الشمس والتعرية ـ الممزقة والمتربة ، تقبض أياديهم على رماح بدائية ، وعلى وجوهم يقطر العرق ويصرخ الجوع والشقاء ..

اصطفوا وسط الساحة بين الخيام التى تضم أطفالهم ونساءهم ، وبقايا القطعان الهزيلة من خراف وماعز ، من بعيد يمكن أن ترى الرجال فيلقًا مقاتلا صغيرًا ، يقف أمامه قائد ضخم الجثة ، يرتدى ملابس مشابهة لملابسهم ، ويتحدث بصوت جهورى لبيث فى عروقهم حماسًا وهميًا ، بينما الجوارح تصرخ فى السماء فوقهم :

ـ اسمعونى أيها الرعاة الذين لم ترعوا منذ سنين ، وإنما ورثتم النعت عن جدودكم الذين ملكوا (طيبة) ، ومن يملك (طيبة) يملك العالم كما يقولون .. اسمعونى جيدًا وعوا .. ها قد حان الوقت أخيرًا لكى نعيد مجد الماضى التليد ، ولنعود إلى النهر الذى منحنا الحياة لكننا فرطنا فيه قديمًا .. طردنا الفراعنة قديمًا لكننا

على عهد العودة باقون .. واليوم ، اليوم فقط أرسل إلى زعماء عشائر الرعاة المتفرقين فى البوادى ، يعلنون تضامنهم معى على قلب رجل واحد ، لنكون جيشًا ضخمًا نستعيد به القدرة على الهجوم ، فنحن الذين علمناهم القتال ، ونحن وحدنا القادرون على هزيمتهم مرة أخرى ، تحت لواء ملككم الوحيد الباقى من سلالة ملوك الرعاة ، أنا (خيان) ..

هتف (تاعو) الواقف بين الرجال فى الصف الأول رافعًا ذراعه لأعلى :

ـ عاش (خيان) .. عاش آخر الرعاة ..

أتته الهتافات المرددة من خلفه ضعيفة ، باهتة ، فاترة :

ـ عاش (خيان) .. عاش آخر الرعاة ..

تجاهل (خيان) رخاوة الهتافات وجفاف الحماس فى حلوق وعروق رجاله ، وظل يحدق فى نقطة بعيدة عند أفق الكثبان الرملية القريبة ، وقلبه يخفق بعنف بين أضلاعه ، بينما عيناه تبرقان بالحماس والاستثارة :

ـ لقد وصلوا إذن ..

كان قد لمح جوادين من بعيد ، على صهوتيهما شابان يرتديان الزى الفرعونى ، ويتقربان من الخيام حثيثًا ، فاستدار أخيرًا إلى الرجال ، هاتفًا :

ـ لقد وصل رسولان من عند (تحتمس) يا رجال ..

تساءل (تاعو) وهو ينظر إلى الجوادين المقتربين :

ـ وماذا سنفعل بهم يا جلالة الملك ؟!

قال (خيان) وهو يفرك كفيه ، ثم ينحنى للإمساك برمحه :

ـ لنر أولاً ما سوف يقدمه لنا (تحتمس) ..

دقائق ، واخترق الجوادان مضارب العشيرة ، حتى توقفا فى الساحة بين الجنود المصطفين فى شبه نظام ، وبين (خيان) الذى وقف مستندًا إلى رمحه الذى انغرس رأسه فى الرمال ..

هتف (حورى) ، وهو يقبض على لفافة البردى بين ملابسه :

ـ نريد مقابلة الملك (خيان) .. آخر ملوك الرعاة ..

قال (خيان) ، منقلا بصره بينه وبين (محب) :

ـ اهبطا من فوق جواديكما وانحنيا ، فأنتما فى حضرته الآن ..

نظر (محب) إلى (حورى) ، ولم يبادله الأخير النظرة ، فقد قفز من فوق جواده منتصبًا كالطود ، وتقدم من (خيان) قائلاً فى صرامة :

ـ أما الهبوط فهو واجب على الفارس فى مواجهة آخر يقف على ساقيه ، وأما الانحناء ، فلست ممن ينحنون أمام أحد ، مهما كان ..

قفز (محب) من فوق الجواد مجاهدًا حتى لا يسقط ويصبح عرضة للتندر ، ولما استعاد توازنه واقفًا رأى (خيان) ينظر باسمًا فى شراسة إلى (حورى) الرابط الجأش ، ويقول :

ـ فيم جئت إذن أيها الشجاع ؟!

قال (حورى) :

ـ نحن مبعوثان من الملك (تحتمس الثالث) ، وقد أرسلنا إليك برسالة ..

عقد (خيان) ساعديه أمام صدره ، قائلاً فى غبطة :

ـ كلى شوق لسماعها ..

أخرج (حورى) اللفافة من بين ملابسه ، ومدها نحوه قائلاً فى ثبات :

ـ ماذا عن قراءتها ؟!

هز (خيان) كتفيه وتناولها :

ـ لا بأس ، إنه يعاملنى كملك حقيقى وهو أمر يحسب له قطعًا ..

ثم إنه سارع بفض البردية مجاهدًا لإخفاء لهفته ، وفى اللحظة التى جرت عيناه على سطورها ، كان (حورى) يحاول أن يخترق ببصره البردية محاولاً استكناه فحواها ، فى حين كان (محب) يستشعر خطرًا مجهولا لا يدرى كنهه ، لكنه يحس بدنوه إلى حد الملامسة ..

طالت قراءة الرسالة أكثر مما يجب ، هكذا فكر (حورى) وهو يرفع بصره قليلا إلى (خيان) الذى

كانت عيناه تعاودان الركض على السطور وبينها ، كأنه يحاول التأكد من صحة ما هو مكتوب ، مرة بعد مرة ، حتى ...

انفجرت الضحكة !

طاولت ضحكة (خيان) عنان السماء ، ضحكة رهيبة جمدت (حورى) فى موضعه ، وارتعدت لها فرائص (محب) ، بينما أثارت دهشة الرعاة جميعًا فى صمت مستطير ..

ـ لم أكن أعرف أن (تحتمس) يملك حس دعابة إلى هذا الحد !

ثم إنه نظر إلى (حورى) المتجمد فى موضعه سائلا :

ـ أتجيد قراءة الهيروغليفية ؟!

هز (حورى) رأسه بالإيجاب دون أن ينطق ، فألقى (خيان) باللفافة نحوه متابعًا فى نشوة :

ـ خذ ، اقرأها ..

أمسك (حورى) باللفافة فى الهواء ، وفردها بيديه ليقرأ ما فيها بسرعة ، قبل أن تتسع عيناه ذهولا ، وينظر إلى (محب) الذى كاد الفضول يقتله لمعرفة ما يجرى ..

ـ إن (تحتمس) يتجاوز كل حدود توقعاتى ، فماذا عنكما ؟!

سأل (محب) أخيرًا :

ـ ما الذى كُتب فى هذه الرسالة ؟!

قال (حورى) ، وهو ينقل بصره بين الرسالة و(خيان) فى كراهية لكليهما معًا :

ـ رجاء من ملك (طيبة) إلى ملك الرعاة ، اقتل حاملى هذه الرسالة إليك ، فهما لا يستحقان الحياة ، التوقيع .. الملك (تحتمس) !

تفجر وجه (محب) بالذهول :

ـ فقط ؟!

وجاهد (حورى) حتى يتماسك ، محاولاً إيجاد مغزى لكل هذا الذى يحدث :

ـ فقط ..

أشار (خيان) نحوهما ، هاتفًا فى رجاله :

ـ تحفظا على هذين ، فهما الآن أسرى لنا بأمر مليكهم ..

وانخرط (خيان) فى نوبة أخرى من الضحك الذى اهتز له شحمه ، بينما كوّن عشرات الرجال دائرة حول (حورى) و(محب) ، اللذين عجزا عن فهم أى شىء ..

كما عجزا عن مجرد تمنى الهرب من الدائرة التى تضيق حولهما شيئًا ، فشيئًا ..

* * *

فى بستان القصر ، قال (رخميرع) وهو يتأمل زهرة لوتس تسبح فى قلب البحيرة الصناعية ، بين الشجيرات والورود والحسناوات والعبيد :

ـ أعتقد أنهم قد بلغوا هدفهم الآن يا مولاى الملك ..

قضم الملك (تحتمس) من تفاحة قضمة كبيرة ، وقال بينما يلوكها فى فمه :

ـ ستكون المفاجأة قاسية عليهما حسبما أعتقد ..

قال (رخميرع) مفكرًا :

ـ ربما لم يكن هذا هو الحل الوحيد للوصول إلى المبتغى ، لكنه أكثر الحلول جرأة وشجاعة ..

وقال (تحتمس) ملتقطًا منه خيط التفكير ، وقاضمًا قضمة أخرى :

ـ كان يمكن أن نخبرهما بكل شىء قبل أن يغادرا ، لكن المفاجأة وقتها لن تكون طبيعية كما ينبغى أن تكون ..

قال (رخميرع) :

ـ فى حالة فشل هذه الطريقة يمكننا اللجوء إلى طرق أخرى لمحاولة استعادة الرداء !

وقال (تحتمس) ، وقد عافت نفسه المزيد من التفاح ، وشردت عيناه فى زهرة لوتس أخرى تسبح فوق سطح البحيرة فى هدوء :

ـ لو فشلت هذه الطريقة ، فسنخسر زهرتى لوتس ياتغتين ..

وتنهد ، قبل أن يتابع :

ـ وهذا ما لا أريده أن يحدث ، مطلقًا ..

* * *

فى خيمته ، قرأ (خيان) البردية للمرة الألف قبل أن يغمغم فى ضيق :

ـ أين مكمن الخدعة هنا ؟! أين ؟!

هز (تاعو) كتفيه ، وقال مستهينًا :

ـ ربما لا توجد خدعة كما تتوهم ، وربما الملك (تحتمس) يحاول أن يخطب ودك بأن يرسل لك من تقتله ، بعد خوفه من حيازتك للرداء !

قال (خيان) شاردًا :

ـ افتراض برىء للغاية ، لكنى أشم رائحة لا تعجبنى فى الأمر برمته ..

قالت (باستت) ، وهى تتناول منه البردية لتنظر فيها بعينيها الناعستين :

ـ لن نستطيع قتلهما هنا على أية حال ، معتقداتنا تمنع ذلك ، وهم يعرفون بالتأكيد ..

قال (خيان) معتصرًا ذهنه :

ـ هذا بالتحديد ما كنت أفكر فيه ، ما الذى يريدونه من وراء ذلك إذن ؟!

قال (تاعو) بنفس الاستهانة هازًا كتفيه مرة أخرى :

ـ يمكننا اصطحابهما خارج مضارب الخيام وقتلهما شر قتلة كما فعلنا مع (سخت) ..

قالت (باستت) ملوحة بأصابعها الطويلة فى الهواء :

ـ أو أن هذا ما يريدوننا أن نفعله ..

تساءل (خيان) فى حنق :

ـ وما الذى سيكسبونه من وراء هذا ؟! يكاد عقلى ينفجر !

قالت (باستت) :

ـ ربما يريدون التأكد من أننا نمتلك الرداء بالفعل ..

سألها (تاعو) فى غباء :

ـ وكيف يمكن أن يحدث هذا ؟!

قالت :

ـ بـأن نجـرى تجـربة صـــغيرة للـرداء علـى واحد منهما ..

فرقـع (خيـان) بإصبعيه هاتفًا ، وقـد اكتسـت نبراته بالجذل :

ـ رائع ، ونرسلهما إلى (تحتمس) بعد إجراء التجربة ، ربما مقتولين كما يتمنى !

بادلته (باسـتت) الجذل بأفضل منه ، وضحكت فـى نعومة ، وهى تقول :

ـ اترك لى ذا العيون الخضر ، فهـو يروقنـى كثيرًا ، وسأتسلى بتجربة الرداء عليه ..

قال فى بسمة خبيثة :

ـ لا بأس ، ولكن .. هل أنت واثقـة مـن قدرتـك علـى التعامل مع الرداء ؟!

قالت فى بسمة أكثر خبثًا :

ـ للـرداء سـبع قـوى خـارقة ، سأريك أقلها ضررًا فحسب ..

والتمعت أسنانها اللؤلؤية إذ أردفت :

ـ سترى أسطورة الطاعـة العمياء ماثلـة أمـامك فـى جلاء ، وسترى كيف يمكن أن يكون أثرها ناريًا حارقًا ، لا يبقى ولا يذر ..

وبحركة مباغتة من يدها ، فوجئ (خيان) و(تاعو) بالرداء الكتانى ينفرد من كمها أمام عينيهما ، بينما هى تواصل ، وقد تحولت ملامحها القططية البريئة إلـى ملامح وحشية مفترسة تليق بشيطان مريد :

ـ أما بقية القوى ، فسندخرها إلى يوم الزحف المقدس على (طيبة) ، لاستعادة مجد الماضى التليد ، علـى حد تعبيرك يا عزيزى (خيان) ..

* * *

٤ـ ساحـرة ..

فتح (محب) عينيـه الخضراوين ليجدها أمامه ، تمسح وجهه وصدره العارى المغطيين بالجروح والكدمات بمنديل مبلل فى يدها ، وعيناها الناعستان تنظران مباشرة فى عمق عينيه ، ورائحتها الزكية تملأ عليه حواسـه ، فما كـان منـه إلا أن اغتصب بسمة علـى وجهــه ، ورغـم الأوجـاع التى تئـن فى كـل نقطـة مـن جسـمه ، قال فـى مرح منهك :

ـ هل مت وانتقلت إلى الفردوس دون محاكمة أوزيرية أم ماذا ؟!

أتاه صوتها الحالم وهى تواصل عملهـا فـى مهـارة ، وتلمس بشرته فى حنان :

ـ روحك مرتفعة رغم كل الدمــاء التـى تزيـن وجهك أيها المصرى الوسيم ..

ضحك فى ألم ، وهو يسألها :

ـ أما زلت وسيمًا ؟!

بادلته الضحك ، وقالت :

ـ لا تسألنى ، أنت تعلم بالتأكيد ..

ـ هـل تعلمين أنـت أنك تشـبهين القطـة الفرعونية (باستت) إلى حد مخيف ؟!

ـ هل تعلم أنت أننى أحمل اسمها أيضًا ؟!

قال متأملا فى ملامحها بعينه السليمة ، بينما الأخرى جفنها منتفخ ونصف مسدل :

ـ أعلم أنك تحملين فتنتها على الأقل ..

عصرت (باستت) المنديل المبلل فى قـدر قريـب منهـا ، داخـل الخيمـة الصغـيرة التـى انفـردت فيهـا بـ (محب) ، والتى لا تحوى أى أثاث باستثناء منضدة قريبـة عليهـا قوارير ومعـدات كثـيرة متراصـة فـى عشوائية منظمة ، وقالت ناهضة من أمامه حيث يجلس إلى عامود مغروس بقوة فى الرمـال ، وجذعـه مربـوط إليه فى إحكام بحبال قاسية من الليف :

ـ إنك لم تر من هذه الفتنة شيئًا بعد ..

ثم إنها مدت يدها إلى قارورة فيها سائل متعكر ، وقربتها من شفتى (محب) قائلة ، كأنها تداعب طفلا رضيعًا :

ـ خذ ، اشرب .. بالهناء والشفاء ..

نظر (محب) إلى السائل ، وابتلع ما تبقى مـن ريقـه الجاف قبل أن يسألها :

ـ ما هذا ؟!

ـ مياه ، لا أكثر ..

ـ شكرًا ، لا أريد ، إن كنت قد وقعت فى غرامى وتريدين إنقاذى دون علمهم فيمكنك أن تفكى قيودى على الفور ، وتأكدى أنى لن أخبر أحدًا بأى شىء دار بيننا ..

ضحكت (باستت) ضحكة طويلة منغومة ، ثم وضعت القارورة جانبًا ، وهى تقول :

ـ كنت أعرف أنى سأتسلى معك كثيرًا ..

نظر (محب) إليها قائلاً :

ـ أعتقد أنك لا ترومين إنقاذى ، وبالبديهـة أيضًا لم تقعى أسيرة لهواى من اللحظـة الأولـى ، فمـاذا تريدين منى إذن ؟!

كانت بسمتها ساحرة وهى تقول معاودة النظر فى عمق عينيه :

ـ هل أنت متعجل حقًا ؟!

قال وقد أيقن أنها تضمر له شرًا مستطيرًا :

ـ إن كنت تريدين قتلى فبها ونعمت ، اقتلينى وأنهى الأمر على الفور ..

ـ كأنك لا تعرف أن قتل الغرباء على أرضنا يدنسها ، لذلك لا نقتل عليها أحدًا من الغرباء !

قالتها ثم نهضت وأعطته ظهرها لتعبث بما على المنضدة بحيث لا يراها من جلسته مقيدًا ، فسألها وآلام الجراح والكدمات تعاود الأنين الرهيب فى أعماقه :

ـ وماذا ستفعلون بى وبزميلى إذن ؟!

استدارت متجاهلة سؤاله ، ممسكة برداء من الكتان فى يدها ؛ مطرز بخيوط ملونة لامعة ، ومتسائلة بدورها :

ـ ما رأيك فى هذا الرداء ؟!

ارتفع حاجبا (محب) وهو ينظر إليه فى دهشة :

ـ الرداء المطلسم ؟!

قالت باسمة :

ـ يبدو أنك تعرفه جيدًا يا عزيزى !

هز (محب) رأسه كطفل مندفع ، قبل أن يقول :

ـ أعرفه تمام المعرفة ، رأيت تصاميم منقولة عنه مرات كثيرة ، والأساطير المنسوجة حوله بلاحصر ، فهو من أحد أكبر أسرار الكهنة التى تحوى إحدى أعظم القوى الخارقة .. أليس كذلك ؟!

قالت (باستت) مصححة :

ـ سبع قوى خارقة .. لا يبدو أنك تستذكر دروسك جيدًا أيها المصرى ..

ثم إنها أخذت تدنو منه والرداء معلق فى يديها ، ولما دنت منه أصبح الرداء هو الفاصل الدقيق بينه وبينها ، قالت لتلفح أنفاسها وجه (محب) المشوه :

ـ ما رأيك ، هل تحب أن ترتديه ؟!

سألها وهو يستنفر كل حواس الخطر لديه :

ـ ماذا سيحدث عندما أرتديه ؟!

أشارت إلى خاتم أخضر فى بنصرها الأيسر ، قائلة :

ـ ستصبح مثل هذا الخاتم فى إصبعى يا عزيزى ..

غمغم (محب) مشدوهًا :

ـ حقًا ؟!

قالت متراجعة بظهرها ، ودائرة حوله حتـى أصبحت تقف وراء كتفه العارى مباشرة :

ـ الأجمل أنك لن تدرك ذلك أبدًا ، سيكون الأمر أشبه بحلم ، أو بكـابوس ، يجرى من حولك دون أن تعرف أنه كذلك بالفعل ..

حاول (محب) ـ رغم الخوف الذى تطاول فى أعماقه كمارد متوحش ـ أن يبتسم قائلاً فى سخرية :

ـ هذا الشعور يعترينى دائمًا ، فما الجديد يا ترى ؟!

لم يكن باستطاعته أن يرى ما يحدث خلف كتفه ، حيث تناولت (باستت) سيخًا من المعدن من فوق موقد احمرت جمراته ، وقربته من كتف (محب) قائلة فى لهجتها الناعمة :

ـ هذا لأنك فنان ، وعاشق .. أى أنك تعيش فى حالة متصلة من الأحلام والكوابيس يا عزيزى .. لكن صدقنى ، هذا الحلم يختلف كثيرًا ..

ورفعت السيخ المعدنى لأعلى ، ليظهر قاعدته المستطيلة التى احمرت بفعل النار أمام عينيها ، متابعة :

ـ استعد ، فالآن تبدأ طقوس الرداء السحرية ..

وانهالت بقاعدة السيخ على كتف (محب) ، ليصدر صوت احتراق لحمه بنار الوشم ، مختلطًا بصرخة الألم الرهيبة التى اندلعت من حنجرته ..

ومن خارج الخيمة ، بعد دقيقة أو أقل ، صدرت صرخة ألم أخرى ..

ثم سكنت كل الأصوات .. تمامًا ..

* * *

انهالت كف (تاعو) بلطمة أخرى عنيفـة على وجـه (حورى) المقيد بإحكام فى عامود خيمة أخرى قريبة، وقد تلون وجهه هو الآخر بالأحمر والأزرق والبنفسجى، وأخذ يلهث من فرط الألم والانفعال والغضب، معاودًا النظر جهة (تاعو) الباسم بقرنـى الثور على رأسـه، والقائل فى متعة سادية مكشرًا عن أسنانه الحادة:

ـ حذار يا صـاح، حـاول ألا تمـوت حتى لا يعاقبونى بالخروج على تقاليد العشيرة..

بصق (حورى) علـى رمـال الأرض، قبل أن ينظر إلى (تاعو) مجددًا فى مقت، ويقول فى نبرة هادرة:

ـ ستدفع ثمن هذا غاليًا.. أعدك بهذا..

ضحك (تاعو) فى مجون، وهو يقول ملوحًا برمحه فى يده:

ـ أعتقد أنـك لن تعيش حتى وقتهـا، فأنا أتـوق إلـى أخذك خارج المضارب وإلى غرس هذا الرمح فى قلبـك مباشرة، لكنهم ما زالـوا يفضـلون الاحتفـاظ بك حيًّـا، وهى لعمرى تسلية فريدة لمن يهـوى العبث بخصومـه مثلى..

هتف (حورى) لاهثًا:

ـ فك قيودى، ونـازلنى رجـلا لرجل، وسترى من سيسحق الآخر أيها الرعديد..

هز (تاعو) رأسه يمنة ويسرة وهو يتأتئ فى أسف مصطنع، واقترب من (حورى) ممسكًا بذقنـه، وقـائلاً فى لهجة هادئة:

ـ خطأ يا عزيزى، لو كنت فى موقف الضعيف مثلك لراقبت لسانى جيدًا، وإلا فعلى أن أتوقـع عقابًـا قاسيًا من هذا النوع..

ولطمه بقوة مجددًا، فطار وجـه (حـورى) إلى جهة اليمين، وكاد يبكى قهرًا عندما ارتفع النداء الصارم من مدخل الخيمة:

ـ (تاعو)، ماذا تفعل ؟!

كـان (خيـان) يقـف هنـاك مراقبًـا مـا يجرى بعينيـن ناريتين، فالتفت إليه (تاعو) مقطبًا فى غير فهم:

ـ لا شىء، كنت أقوم بواجبى تجاه أسيرنا فحسب..

تقدم منه (خيان) بوجه غاضب، وانتزع من يده الرمح هاتفًا فى لهجة زاجرة:

ـ هل هذا ما لقنتك إياه بشأن إكرام ضيوفنا أيها الغبى ؟!

هتف (تاعو) فى استنكار:

ـ هذا أسير، وليس ضيفًا ..

ـ وإن يكن ..

واستدار (خيان) إلى (حورى) الذى تواصل لهاثه المتألم، ثم اقترب منه مواصلا:

ـ معاملة الأسرى فن لا يبدو أنك تجيده يا (تاعو)، كما لا يبدو أنك تجيد شيئًا على الإطلاق!

عقد (تاعو) ذراعيه أمام صدره، هاتفًا:

ـ ما الذى تريدنى أن أفعله عندما يهيننى إذن ؟!

قال (خيان):

ـ أن تعامله بالرحمة، هكذا ..

وبسرعة، غرس (خيان) نصل الرمح فى ذراع (حورى)، لينفجر منها الدم، وليصرخ الأخير صرخة مدوية رددتها الصحراء، فابتسم (تاعو)، قائلاً فى جذل:

ـ فهمت، أنت الملك الحقيقى يا (خيان)، وما نحن إلا رعايا بسطاء ..

انتزع (خيان) النصل من لحم الذراع، فكتم (حورى) أنته بصعوبة، وعندما ألقى (خيان) الرمح ليلتقطه (تاعو) فى الهواء، قال:

ـ هيا، أرنى ما يمكن للرعاة أن يفعلوه بدلا من قتال الأطفال ..

هتف (تاعو) منتشيًا:

ـ سأريك ..

واقترب من (حورى) الذى استعد لجرعة أخرى رهيبة، ونظر إلى جرح ذراعه العريض، قبل أن يستدير مخاطبًا (خيان) فى سؤال:

ـ هل أسدده إلى نفس الذراع ؟!

قال (خيان) هازًا كتفيه فى بساطة :

ـ كلا بالطبع، عليك بالذراع الثانى حتى لا يغار من أخيه !

ضحك (تاعو)، وسدد نصل الرمح إلى لحم الذراع الثانى متمتمًا :

ـ الآن تبـدأ المتعـة الحقيقيـة يا عزيزى المصـرى الشجاع ..

وانهـال بـالرمح علـى الـذراع، لـتردد الصحـراء فـى الخارج الصرخة مرة أخرى، وأخيرة ..

* * *

من الخارج، كانت الخيمـة ترتج بعنـف، كأنها علـى وشك الانهيار، رغم أن الرياح لم تهب، والعاصفة لم تضرب الصحراء الساكنة ..

وفى الداخل، كان المشهد مهيبًا بحق ..

دائرة مـن النـار المشـتعلة على الرمـال حول عـامود الخيمة الرئيسى الخشبى، المربوط إليه (محب) جالسًا وقد تغطى جلده من رأسه إلى أخمـص قدميـه بالدماء،

وأمامه تقف (باستت) السـاحرة، رافعة ذراعيها إلـى أعلى، شعرها ورداؤها يتطايران كـأن ريحًا خفية تهـب علـى الخيمـة مـن اللامكـان، أمـا الـرداء الكتـانى فقـد انطرح بينها وبين محب على الأرض فى استكانة لا تنم عن أى قوة خفية تسكنه ..

فى يدى (باستت) المرفوعتين لأعلى كـانت هنـاك قارورتـان صغيرتـان مفتوحتـان، وكـانت شـفتاها تهمهمان بطلسمات لغـوية ذات منطق عجيب، مغلقة عينيها الكحيلتين، وواقفة على أطراف أصابعها، حتـى بدأت ترتفع عن الأرض الرملية قليلا .. قليلا ..

ارتفعت بمسافة ضئيلة، ثم أمالت عنقـى القـارورتين لتنسكب السوائل الملونة فى داخلهما إلى الأرض، على الـرداء الكتـانى المطـرز، فـانفجر المكـان انفجـارًا محدودًا ..

وانتشر الضباب الكثيف ..

وإذ انقشع الضباب، كان المشهد قد تبدل على النحو التالى :

دائـرة النـار قـد انطفـأت إلـى بقايـا جمـرات متقـدة ، (محب) ـ وقـد تبخرت الدماء التى تغطيه تمامًا لتظهر ملامحـه دون جروح أو سحجات ـ شـارد ينظـر فـى المجهول بفم مطبق كأنه مغيب عما حولـه تمامًا ، وقد ارتدى الرداء الكتانى المطرز رغم أن القيود ما زالت تكبلـه إلى عامود الخيمة ، وأمامه كانت (باستت) جاثية على ركبتيها تنظر إليه كقطة تموء ، وهى تقول بلهجة مسرحية :

ـ أنت الآن ملك يمينى ..

ردد (محب) فى آلية :

ـ ملك يمينك !

ـ أنت ستكون رهن إشارتى ..

ـ رهن إشارتك !

ـ أنت ستطيع أوامرى أنا وحدى ..

ـ أنت وحدك !

ظهر الرضا على ملامح (باستت) الجميلة ، فنهضت مشيرة بيديها إليه ، وهاتفة :

ـ لتنفك قيودك إذن ..

وحدها انفكت حبال الليف السـميكة التـى تقيـده ، ومدت (باستت) يدها إلى (محب) الذى تحامل عليها واقفًا ، ووقف ينظر إليها بملامح صلدة دون أن يطـرف لـه جفن ، فـى حين أسندت هـى رأسـها إلـى كتفـه ، وماءت :

ـ إليك طلبى الأول ..

لم ينبس (محـب) ببنـت شـفة ، وأشـارت هـى لإنـاء أسطوانى مـن الفخـار يقبـع فـوق المنضـدة القريبـة ، فأطاعها الإنـاء وانجذب تلقائيًا إليها ، ولما استقر بيـن يديها ناولته لـ (محب) ، وهى تفسر :

ـ اكسر هذا الإناء ..

أمسك (محـب) بالإنـاء ، وأرسل إليـه نظرة خاويـة بين يديه ، قبل أن يرفعه عاليًا ، وينهال بـه علـى حجر صلب على الأرض ، فتحطم إلى ألف شظية أو أكثر ..

نظر (محب) إلى (باستت) فى خواء كأنـه يسـألها إن كانت قد رضيت عنـه ، وتشـاغلت هى بالنظر عنـه

إلى شظية فخارية على الأرض ، تحمل نقشًا بارزًا فى صلابة ..

نقش باسم الملك (تحتمس الثالث) ، بلغة قومها ..

واتسعت ابتسامتها أكثر ..

* * *

أمسك الملك (تحتمس الثالث) ببطنه فى ألم ، وهى يقىء للمرة الثالثة على التوالى فى إناء مذهب بحجرته الملكية ، فى اللحظة التى اندفع فيها (رخميرع) إلى الحجرة فى توتر شديد :

ـ حضر الأطباء والكهنة يا مولاى ..

أشار له (تحتمس) بيده ، ثم خاطبه بحلق جاف ووجه مصفر :

ـ أدخلهم بسرعة ..

خرج (رخميرع) وأدخلهم ، ومن وقفته فى الخارج اخترقت تأوهات الملك الشاب سمعه ومزقت نياط قلبه ، فعض على شفتيه شاعرًا بمدى عجزه عن الفعل ..

أو التفسير ..

ما الذى داهم الملك فجأة وقد كان على أتم ما يرام ؟!

ما سر نوبات القىء والألم الذى يمزق أحشاءه تمزيقًا ؟!

ما الذى يجرى ؟!

كانت الأسئلة تترى فى ذهنه عندما اقتحم أحد موظفى القصر أفكاره :

ـ السيد المبجل (رخميرع) ..

رفع إليه وجهًا مكفهرًا :

ـ ماذا هناك ؟!

قال الموظف :

ـ فى الحقيقة .. لا أدرى ماذا أقول فى هذا الظرف الطارئ الذى ...

قاطعه (رخميرع) فى نفاد صبر :

ـ تكلم دون مقدمات ..

ازدرد الموظف ريقه ، وقال محاولاً التجاوز عن حرجه وتلعثمه :

ـ هناك أحد العبيد يعانى من نوبات قىء وألم كالتى ألمت بمولاى الملك بالضبط ..

صاح فيه (رخميرع) ، معنفًا :

ـ أهذا وقته ؟! ليذهب العبد إلى الجحيم ، إننا الآن بصدد سلامة الملك أيها الـ ...

قال الموظف مهونًا :

ـ حناتيك أيها السيد المبجل ، حناتيك .. إننا نعتنى به الآن لكنى أقصد أمرًا مختلفًا ..

ـ قلت لك تكلم دون مقدمات ..

وتكلم الموظف :

ـ لقد أكل العبد من نفس التفاح الذى تناوله الملك ظهيرة اليوم يا سيدى المبجل ..

أمسك (رخميرع) بتلابيب الموظف مصعوقًا :

ـ ماذا تقول ؟! هل تعنى أن الأمر بفعل فاعل ؟!

قال الموظف محاولاً التجاوز عن خوفه وقلة حيلته :

ـ إنها مؤامرة لا ندرى من المتورط فيها يا سيدى !

ضاقت عينا (رخميرع) ، وهو يهدر فى خفوت :

ـ خيانة أخرى ..

ثم إنه التفت إلى الموظف وترك تلابيبه ، ليسأله :

ـ هل لديكم بقايا التفاح الذى أكله هذا العبد وجلالة الملك ؟!

هز الموظف رأسه بالإيجاب ، فدفعه (رخميرع) بقوة ، وهو يهتف :

ـ آتنى به فى الحال ..

انطلق الموظف يمتثل لأمر الرجل الثانى فى المملكة ، فى حين اخترقت آهات الملك أذنى (رخميرع) مجددًا ، لتزيد من سورة غضبه ، ومن فورة اشتعاله ، فعاد يهدر :

ـ خيانة أخرى ، ما فى هذا من شك !.

* * *

- (حورى) .. (حورى) .. هل تسمعنى ؟!

أفاق (حورى) أخيرًا على الرائحة النفاذة ، وعلى النداء الهامس بصوت نسائى مرتعد ..

فتح عينيه المنهكتين ، ونظر حوله حتى استعاد تركيزه دفعة واحدة ..

مازال فى خيمة الرعاة ، لكن الحبال انفكت من حوله ، وهو مسجى على الرمال ..

مازال وجهه لوحة للجراح وقطرات العرق ، ومازال الألم يمزق أعضاءه تمزيقًا ، غير أن ذراعيه مربوطان بضمادتين فى إحكام ، ليتوقف نزيفهما العنيف ، وحتى لا يتلوث الجرحان ..

مازال هناك ، وبجواره من تسأله بصوت نسائى مرتعد :

- (حورى) .. (حورى) .. هل تسمعنى ؟! أنا هنا !

- من ؟!

ندت عنه فى آلية ، وهو ينظر إلى وجهها الذى باغته دونما انتظار ، الشعر الليلى الطويل ، البشرة الخمرية ، الشفتان المكتنزتان ، و ...

- هل أنت بخير ؟!

- (نفرو) ؟!

هتف بها وعيناه تتسعان من الدهشة ، فوضعت سبابتها على فمه هامسة :

- هششش .. نعم ، اخفض صوتك قليلا ..

تحامل على نفسه حتى يجلس ، فيما أغلقت هى قارورة زجاجية صغيرة كانت تضعها أمام أنفه حتى يفيق برائحتها القوية ، وأخفتها بين ملابسها ..

قال (حورى) وهو يتأمل ما صنعته (نفرو) بحنكتها الطبية فى أغلب الجراح الغائرة فى جسمه :

- لماذا لم تقابلينا ؟!

قالت (نفرو) ، وهى تحكم ربط الضمادة على ذراعه القريب منها :

- دورى هذه المرة يقتصر على أن أتدخل لإنقاذ أى منكما فى الوقت المناسب ، فى حالة ما إذا قام أحد الرعاة بمحاولة لقتلكما خارج مضارب العشيرة مثلا ، أو كما أفعل الآن ..

التفت إليها ، سائلا فى جدية :

ـ ولماذا أنا أولاً ؟! لماذا لم تتجهى إلى (محب) وتنقذيه ؟!

توقفت عن العمل ، ونظرت إليه مجيبة فى جدية ممثلة :

ـ ومن أخبرك أننى لم أنقذه ؟!

ارتج على (حورى) ، فى حين قالت هى :

ـ أنت محق ، لقد عثرت عليك أولاً .. اعتبرها صدفة لا أكثر ..

سألها بلهجة ذات مغزى :

ـ حقًا ؟!

تجاهلت مغزى السؤال ، ونهضت قائلة :

ـ هيا ، يجب أن نسرع بالفرار قبل أن يدخل ويجدنا ، لحسن الحظ أن أحدًا لم يعد لتفقدك منذ فقدت وعيك إثر تعذيبهم الوحشى حتى الآن ..

تحامل على يدها ونهض ، ثم قال :

ـ يجب أن نجد (محب) أولاً ..

قالت محذرة :

ـ يمكن أن يعثروا علينا ، وعندها سألاقى من صنوف العذاب ما لاقيته أنت أضعافًا مضاعفة !

أمسك بذراعها ، وقال فى خشونة :

ـ لن أترك الرعاة بدونه ، فلن يحتمل جسده جزء مما احتملت ..

نظرت إليه دون أن تنطق ، كأنها تكتشف فيه ما لم تكتشف من قبل ، فأشاح بوجهه عنها مردفًا :

ـ ليست شهامة بقدر ما هو واجبى تجاه جندى آخر من جنود لوتس ..

وضعت يدها على كتفه فى رفق ، وهى تقول :

ـ ماذا تقترح إذن ؟! هل ستبحث عنه فى الخيام الأخرى واحدة واحدة ؟! ماذا لو رآك أحد ؟! ماذا لو عثرت عليه وعجزت عن إنقاذه ؟!

أخفض يدها من فوق كتفه فى حركة عنيفة ، فصمتت ناظرة إلى ظهره قبل أن تتنهد ، ثم قالت :

ـ لست قاسية القلب ولا أريد تركه ، لكنى لا أريد أن نفسد كل شىء بعد أن بلغنا هذه المرحلـة ، هل يحتـاج موقفى إلى تفسير كهذا ؟!

فوجئت بـ (حورى) يهتف :

ـ وجدتها ..

واستدار يواجهها بوجـه متألق رغم مـا يعانيـه من تشوهات ، فقطبت وسألته :

ـ ما الذى وجدته ؟!

أمسك بكتفيها ، قائلاً فى حماس :

ـ يمكنك أن تسبقينا وتنتظرى خـارج المخيم ، هذا أفضل لك قطعًا ..

عادت تسأله :

ـ ماذا ستفعل ؟!

لكنـه لـم يجبهـا ، وتحرك نحـو مخـرج الخيمـة علـى الفور ..

عقدت حاجبيها حتى رأته يختفى بالخـارج ، ففكرت للحظة ، قبل أن تحسم أمرهـا ، وتلحق بـه ، إلـى آخر طريق الجنون لو أراد !

* * *

٥ـ معـــركـة ..

ـ (خيان) .. (خيااااان) .. (خيااااااااااان) ..

دوى النداء أكثر من مرة فى الساحة الواسعة بين الخيام ، فتدفق الجنود يراقبون (حورى) الواقف ينادى بأقصى قوته ، ومن خلفه وقفت (نفرو) مجاهدة للحفاظ على ثباتها ومحاولة هضم الجنون الذى يسير إليه (حورى) ..

صنع الرجال الذين يرتدون خوذات قرون الثور حولهما دائرة محكمة ، ولم يهاجمهما أى منهم حتى برز (خيان) بجثته الضخمة وخلفه (تاعو) و(باستت) من وراء إحدى الخيام ، بملامح جدية متجهمة ، واخترقوا الدائرة واقفين على مقربة من (حورى) الذى كاد يلفظ حنجرته من فرط علو نبرته المنادية ، فوقف يلهث وارتطم ذراعاه بجانبيه فى قوة ..

تساءل (خيان) فى قسوة :

ـ كيف غادرت خيمتك أيها الأسير ؟!

أشارت (باستت) بإصبعها الطويل من خلفه إلى (نفرو) :

ـ فتش عن الأنثى دائمًا !

قبض (تاعو) على رمحه فى ، قوة وهو يهتف مندفعًا :

ـ هل أقتاده إلى أسره ثانية يا ملك الرعاة ؟!

رفع (خيان) كفه ليوقف اندفاع (تاعو) ، ويقول فى هدوء صارم :

ـ دعنا نرى أولاً ما الذى يريده منا ، فقد كان بإمكانه أن يحاول الهرب ، رغم أننا لم نكن لنسمح له بهذا ..

ثم إنه أشار إلى (محب) قائلاً :

ـ ما الذى تريده منا أيها المصرى ؟! ها أنت ذا تخاطب (خيان) شخصيًا ندًّا لند ، وهو شرف عظيم لأمثالك لو تعلم ..

صاح (حورى) ، وقد هدأت أنفاسه قليلا :

ـ هأنذا أمامكم ، يمكنكم أن تفعلوا بى ما شئتم ، أن تأسرونى من جديد ، أن توقعوا بى أقصى العذاب ،

أن تقتلونى حتى إن أردتم ، لكنى أتحداكم ، إن كان فيكم من يملك الشجاعة ، أن ينازلنى رجلاً لرجل ، حياة بحياة وموتًا بموت ، فإن تغلبت على رجلكم أكون منتصرًا ، واسمحوا لى ولرفيقى ورفيقتى بالعودة من حيث أتينا فى سلام .. أما إن انتصر رجلكم ، فنحن أمامكم تصنعون بنا ما شئتم ، فما قولكم ؟!

ران صمت رهيب على الساحة ، وأطرق (خيان) للحظات قبل أن يقول غير مخف إعجابه :

ـ تبدو واثقًا من نفسك بشدة يا فتى ..

هتف (حورى) :

ـ لم تتركوا لى ما أخسره ..

قال (تاعو) معترضًا :

ـ إن تقاليدنا تمنع أى رجل منا أن يجهز عليك هنا فى هذا المكان ..

هتف (حورى) :

ـ لنخرج فى أى مكان بالبيداء من حولنا .. هكذا يكون العدل ..

سأله (خيان) هارشًا فى شعر لحيته الكثيفة المشعثة :

ـ هل أنت مستعد لمنازلة أى رجل مهما كان ؟!

أجابه (حورى) فى جرأة يحسد عليها :

ـ حتى لو كان هذا الرجل هو أنت شخصيًا يا آخر الرعاة ..

هز (خيان) رأسه ، قبل أن يقول :

ـ لن أعطيك المزيد من الشرف بمنازلتى شخصيًا ، بل سأدع واحدًا من جنودى يتكفل بك ..

أشار (حورى) بيده إلى نقطة مجهولة :

ـ فى الصحراء ؟!

ـ بل هنا ، ستكون اللعبة أكثر إمتاعًا هنا يا عزيزى الهمام ..

قالها (خيان) ثم فرقع بإصبعيه نحو (باستت) التى أشرقت ملامحها القططية ببسمة ساحرة ، قبل أن تفرقع إصبعيها بدورها ، هاتفة :

ـ تقدم منه أيها الجندى ..

خرج من دائرة الجنود جندى يرتدى ملابس سوداء قذرة ويضع على رأسه خوذة سوداء مطلية بالقار ينبع منهـا قرنا ثور ، جندى كان ذائبًا فى زحام عشرات الجنـود ، غير أن ظهوره بمفرده وتقدمـه إلـى منتصـف الدائـرة كان سببًا فى اتساع عيون (حورى) و(نفرو) ..

ـ (محب) ؟!

ـ (محب) ؟!

هتفا بها معًا ، فقد كان (محب) بعينيـه الخضراوين ولحيته الخفيفة وملامحـه اللامعـة الخاليـة مـن أى أثـر لجرح أو كدمة يرتدى ملابس جنود الرعاة ، ويتقدم من مركز الدائرة ليواجه (حورى) شاردًا فى عالم بعيد ..

همست (نفرو) لـ (حورى) :

ـ إنه مسحور ..

وهمس (حورى) من بين أسـنانه ، وهـو ينظر فـى عينى (محب) مباشرة :

ـ لا بد أنه يضع الرداء المطلسم تحت هذه الملابس .. الأوغاد !

صاحت (باستت) :

ـ هذا هـو غريمك الذى عليك أن تقتـلـه أو يقتلك أيها الجندى ..

همس (محب) بلهجة خالية من أى انفعالات :

ـ سأقتله ..

هتف (خيان) من مكان وقوفه ، فى جذل :

ـ إن التقاليد التى تمنعنـا مـن منازلة الغرباء وقتلهم فى أماكن إقامتنا لا تمنع من أن يتنازل غريبان أو يقتـل أى منهما الآخر لدينا .. هكـذا تبدأ معركتكمـا معًا أيهـا الغريبان ، معركة لا تنتهى قبل أن يقتل أى منكمـا الآخر ، إنه أمتع نزال يمكن رؤيته فى مضاربنا على مر العصور ..

غمغمت (نفرو) ، فى فزع :

ـ رباه ، ماذا ستفعل ؟!

كان (تاعو) فى هذه اللحظة يلقى برمحه فى الهواء تجاه (حورى)، الذى قفز ممسكا به قبل أن يهبط على الرمال كبطل أسطورى، ويغمغم بدوره :

ـ لا مفر من خوض المعركة .. لا مفر ..

وهمس (محب) من عالمه المسحور :

ـ سأقتله ..

ثم أشهر رمحـه فى مواجهـة (حورى)، وتواجهت زهرتا اللوتس كغريمين فى أرض الرعاة ..

تراجع (خيان) و(تاعو) ومعهما (باستت) إلى الخلف حتى التحما بالدائرة المطوقة للغريمين، وتراجعت (نفرو) عدة خطوات للوراء أيضًا وقلبها يخفق فى هلع ..

هتف (خيان) فى النهاية رافعًا يده :

ـ ليبدأ النزال ..

هتف الجنود الواقفون فى حماس، فى حين رفع (محب) رمحه، لينهال على (حورى) الذى وقف ينتظره، عاجزًا عن التعامل مع الموقف حتى هذه اللحظة ..

كان (تاعو) يهمس لـ (خيان) فى تلك اللحظة :

ـ أنت عبقرى يا آخر الرعاة، هكذا نربح فى حالة موت أى منهما ..

لكزته (باستت) فى انزعاج :

ـ ابتلع لسانك وشاهد فى صمت !

ارتطمت قناة رمح (محب) برمح (حورى) الذى أشهره فى حركة دفاعية مباغتة، فانهال (محب) بضربة أخرى على (حورى) سارع بصدها، ثم ضربة ثالثة، وحركة دفاعية أخرى، وفى الضربة التالية احتك نصل رمح (محب) بجلد (حورى) فخدشه، لتعلو صيحات الجنود المستحسنة ..

شهقت (نفرو) فى فزع، وقد شعرت أنها طرف ـ بطريقة أو بأخرى ـ فى هذا الصراع العبثى، وتواجه (حورى) و(محب) من جديد ..

نظر (حورى) إلى (محب) مليًا محاولاً أن يستبين فى ملامحه أى انفعال، غير أنه فشل، كان وجه

(محب) لوحًا ثلجيًا باردًا تحت شمس الصحراء، وكان مصرًا على معاودة الهجوم على ما يبدو ..

صرخ (محب) صرخة حماسية، جاوبه بها الجنود قبل أن ينقض على (حورى) مرة مسددًا نصل الرمح إلى صدره، وفى لحظة ضوئية سريعة، برقت الرؤية فى عينى (حورى) ..

وأخذته إلى الماضى البعيد ..

الموغل فى البعد ..

* * *

طفلان، أحدهما أسمر البشرة مجعد الشعر، والآخر نحيل أخضر العينين ..

طفلان، ومعبد منقوش على قمته زهرة لوتس بيضاء، وجبال تخفيهما عن الأعين ..

طفلان، وذكرى قديمة، بعيدة ..

موغلة فى البعد ..

متواجهان، يحمل كل منهما عصا خشبية صغيرة، والمرح يتألق فى العيون البريئة ..

العيون التى لا تزال بريئة ..

يهتف الطفل النحيل فى حماس شديد :

- هنا يمكننا أن نخوض معركة حقيقية ..

يقول الطفل الأسمر فى تحفظ :

- يجب أن نسرع حتى لا يبحث عنا أحد الكهنة أو المعلمين، فيوقعون بنا العقاب ..

يغمز الطفل النحيل بعينه الخضراء :

- كن جريئًا ..

يبتسم الطفل الأسمر :

- هيا، أرنى جرأتك أنت ..

يصرخ الطفل النحيل صرخة قتالية ..

وتلتحم العصوان الصغيرتان ..

* * *

تلتحم قناتا الرمحين ، ويدور (حورى) و(محب) حول نفسيهما فى دائرة واسعة ..

يدفع (حورى) (محب) بعيدًا فى رفق ، فيسقط الأخير على الرمال أرضًا ، ويسرع بالنهوض نافضًا عن ملابسه التراب ، بينما تتابعه نظرات الأول فى إشفاق ..

كيف يمكن أن تسير معركة كهذه ؟!

وإلى أين يمكن أن تفضى ؟!

همس (خيان) لـ (باستت) :

ـ يبدو أن الكفة فى صالح الأسمر ، أليس كذلك ؟!

مطت (باستت) شفتيها ، وقالت :

ـ أعتقد أنك محق ، ليتنى ألبسته هو الرداء المطلسم !

سدد (محب) رمحه إلى (حورى) وهو يركض صائحًا ، فانتظره (حورى) حتى بلغه ثم دفعه برمحه جانبًا فعاد يقع أرضًا ، متحاملا على نفسه مرة أخرى من أجل النهوض ..

فكر (حورى) :

الرداء المطلسم إذن لم يمنح (محب) قوة إضافية ، وإنما جعله فقط عجينة لينة فى أيديهم ..

فكر (حورى) :

يمكنه هزيمة (محب) بكل سهولة ، ولكن ..

الهزيمة هنا لا تعنى إلا أمرًا واحدًا ..

لا تعنى إلا ..

الموت ..

نهض (محب) لاهثًا ، ومن جديد حمل رمحه وانهال على (حورى) الذى أسقط فى يده ، فتصنع صد الضربة ، لينهال عليه (محب) بأخرى ، تظاهر بصدها ،ثم دفع (محب) (حورى) بحركة مباغتة فى صدره ، فسقط الأخير أرضًا ، وقفز (محب) فوقه مشهرًا الرمح فى وجهه ببسمة ظافرة ..

بسمة حملت (حورى) مرة أخرى إلى هناك ..

إلى الماضى البعيد ، الموغل فى البعد ..

* * *

كان الطفل النحيل ذو العينين الخضراوين يجثم علـى أنفاس الطفل الأسمر ببسمة ظافرة ، ويهتف فيه مسددًا العصا الخشبية إلى صدره :

ـ هل رأيت أنه يمكننى هزيمتك بكل سهولة ؟!

ابتسم الأسمر قائلاً :

ـ المعركة لم تنته بعد ..

وبحركة سريعة رفع ساقيه ليقلب الطفـل النحيل فـى نصف دائرة فـى الهواء قبل أن يستقر علـى الأرض ، ونهض ضاحكًا موجهًا إليه سلاحه :

ـ ما رأيك الآن ؟!

نهض الطفل النحيل ضاحكًا بدوره ، وهو يهتف ممسكًا بعصاه الخشبية :

ـ سأفوز فى هذه المعركة مهما كلفنـى الأمـر .. هذا هو رأيى ..

وتلاحمت العصوان مجددًا ..

* * *

قبل أن ينهال (محب) برمحه على وجه (حورى) ، رفـع الأخير سـاقيه بحيث انقلب (محب) فـى الهـواء نصف دائرة ، وسـقط علـى وجهـه فـى الجـانب الآخـر ، قبل أن ينهض كل منهما ممسكا برمحه من جديد ، دون ضحكات هذه المرة ..

كـانت عينـا (محب) غـاضبتين ، لأول مـرة يراهمـا (حـورى) تقدحـان شـــرر الشـــر ، وكـــانت قســـمات (حـورى) حـائرة ، فهـو يسـتطيع إنهـاء المعركـــة فـــى لحظة ، فقط بأن ..

يقتل (محب) !

ـ سأقتله ..

دمدم بها (محب) وهو يرمق (حورى) فـى مقـت ، ووضعـت (نفـرو) يدهـا علـى صدرهـا الخـافق فـى اضطراب عظيم ، بينما صمـت جميـع الجنـود المراقبين لما يحدث ، بمنتهى الاستمتاع واللذة ..

بشراسة انهال (محب) برمحه على (حورى) الـذى جاهد لصد ضرباته دون أن يؤذيه ..

ازدادت ضربات (محب) عنفًا وشراسة، وبلغت صيحاته عنان السماء وهو يجاهد لغرس نصل رمحه فى جسد غريمه، وبحركة جانبية انهال برمحه، فدفع (حورى) رمحه إلى الأمام ليتقى الضربة، عندما ...

* * *

ـ لا ..

صرخ بها الطفل الأسمر فى جزع، وهو يراقب الدماء التى انفجرت من جرح فى كتف غريمه الطفل النحيل ..

كان يتبارزان، عندما انهال الأسمر بعصاته الخشبية على منطقة الكتف، قاصدًا أن يمثل ضربة وهمية فى تلك النقطة، غير أن النحيل تحرك بطريقة خاطئة، فغاص سن العصا المدبب فى لحم كتفه، ليتفجر بالدم ..

سقط النحيل أرضًا، وبجواره الأسمر الذى واصل هتافه :

ـ ما بك ؟!

جاهد النحيل حتى لا يتألم :

ـ لا عليك، إنها إصابة بسيطة ..

وعض على شفتيه، فى حين نظر الأسمر إلى مكان الإصابة مليًا ..

وقال لنفسه :

ـ كلا، هذه ليست إصابة بسيطة، على الإطلاق ..

* * *

فجأة ! انغرس نصل رمح (حورى) فى بطن (محب) ..

فجأة ! انقلب كل شىء رأسًا على عقب ..

اتسعت عينا (حورى) وهو يرمق (محب) فى فزع .. اتسعت عينا (محب) وهو يحدق فى قناة الرمح التى تنتهى داخل أحشائه .. صرخت (نفرو) فى لوعة .. هز (خيان) رأسه فى استحسان .. دوت صيحات الجنود المشجعة .. أظلمت الدنيا وأنارت .. أشرقت الشمس وغربت .. انتهى كل شىء وكل شىء بدأ ..

سقط (محب) على الرمال، وانتصب الرمـح شـامخًا إلى عنـان السـماء ومغروسًا فى جرحـه المميت، فـى حين نهض (خيان) مصفقًا، وحذا (تاعو) حذوه، أما (باستت) فقد لاذت بالصمت وهى تحدق فى (حورى) بنظرات إعجاب لا نهائية ..

هتف (خيان) مواصلا التصفيق، وسط هتافات جنوده المدوية :

ـ رائع، كانت المعركة أمتع ـ رغم أنها كانت أقصر ـ مما كنت أتصور ..

* * *

الطفل الأسمر يحمل الطفل النحيل على ظهره ..

ويعدو لاهثًا رغم الحرارة الشديدة، والثقل الرهيب ..

يقول الطفل النحيل :

ـ لاتخف، مجرد إصابة بسيطة !

يقول الطفل الأسمر :

ـ كلا، ليست كذلك، والتزم الصمت حتى نصل كى لا تسوء حالتك ..

تلوح زهرة اللوتس البيضاء عند الأفق القريب ..

تنغرس القدمان السمراوان فى الرمال ..

تقطر الدماء من الجرح ..

ويبدو الأمل بعيدًا ..

وقريبًا ..

* * *

هرعت (نفرو) تجثو إلى جوار (محب) الذى ثبتـت عيناه الناظرتان إلى السماء، وتحسست جرحه المتدفق بالدماء الغزيرة ؛ التى تشربتها رمال الصحراء العطشى أسفله فـى نهـم، وفـور أن اقـترب (حـورى) جاثيًـا بجوارها فى هلع ذاهل، هتف (خيان) فى جنوده :

ـ أسرعوا وقيدوهما ..

تكـالب الجنـود علـى (حـورى) و(نفـرو) يكبلـون أذرعتهم، ويتراجعـون بهما بعيـدًا عن (محب) الـذى

ينتفض كالذبيح ، لا يستطيع صراخًا حتى ، وأسرعت (باستت) بالتعاون مع (تاعو) فى إخلاعه ملابس الرعاة ، ورداء الكتان المطرز أسفله ..

واجه (خيان) كل من (حورى) و(نفرو) قائلاً :

ـ المعركة انتهت أيها الجرىء ، ستحمل الآن رفيقك الذى قتلته بيدك وترحل ..

هتف (حورى) ـ كالمحدث نفسه ـ وهو يراقب ما تفعله (باستت) ومعها (تاعو) بـ (محب) فى عجز عن فعل أى شىء :

ـ كلا ، إنه لم يمت بعد ..

مط (خيان) شفتيه محولا بصره بين الراقد على الرمال لا يقوى على الحراك ، بينما يخلعانه الرداء المطلسم من أسفل ملابسه ، وبين الواقف أمامه لا يصدق أنه فعل ما فعل بيده :

ـ ليس بعد ، ولكنه لن يقوى على الوصول إلى (طيبة) سالمًا ، سيلقى حتفه بين يديك فى الطريق حتمًا ..

اندفعت (نفرو) تقول ، وقد أغرقت الدموع السوداء من أثر الكحل وجنتيها :

ـ يمكنه أن يحتمل ، لو قطعنا المسافة بسرعة فربما يصل سليمًا ، جرح المعدة يمكن السيطرة عليه لمدة أيام .. أنا طبيبة وأعرف ما أقول ..

هز (خيان) كتفيه معقبًا :

ـ ربما تعرفين ما تقولينه عن الجرح ، لكنك بالتأكيد لا تعرفين ما تتحدثين عنه عندما تقولين (قطعنا المسافة) بصيغة الجمع !

قطب (حورى) ، سائلا فى توجس :

ـ ماذا تعنى ؟!

رفع (خيان) ذقن (نفرو) بأصابعه المكتنزة ذات الجلد المتشقق ، وقال باسمًا فى لزوجة :

ـ أعنى أن المصرية الجميلة سوف تبقى معنا ، عسى أن تعجبها الإقامة بيننا ..

اتسعت عينا (حورى) فى غضب :

ـ لكن ...

أشاح (خيان) بيده ، وهو يقول متصنعًا الضجر :

ـ أعلم ما ستقول ، ستوجع رأسى بالحديث عما قلتـه لك من أنكم ستعودون أنتم الثلاثة معًا .. لقد غيرت رأيـى الآن ، وأريـد الاحتفـاظ بتذكـار لهـذه المعركـة الرائعة ..

قالت (نفرو) وهى تجاهد للسيطرة على نفسها :

ـ لا بأس يا (حورى) ، المهم الآن أن ننقذ (محب) ..

ثم إنها نظرت إلى (خيان) ، قائلة فى ثبات :

ـ سأبقى ..

رفعت (باستت) الرداء الكتانى الذى اخترقـه الرمـح من منتصفه ليمزقه ويغرقه بلون الدم الأحمر ، قائلة :

ـ سيحتاج إلى بعض الإصلاح ، لكنه لم يفقد صلاحيتـه بعد ..

وركل (تـاعو) جسد (محـب) المسجى أرضًـا فـى قسوة ، وهو يقول :

ـ احمل فارسك الفاشل وعد إلى ملكك يا صاح ، ليكون ردنا على رسالته واضحًا تمامًا ..

كظم (حورى) غيظـه ، ونظر إلـى (نفـرو) التـى أومأت له برأسها علامة الإيجاب فى تشجيع ، فزفر فى حرارة ، قبل أن يقول :

ـ ليكن .. سأعود به ..

افتر ثغر (خيان) عن بسمة عابثة ، وهو يقول :

ـ سيرًا على الأقدام !

صاح (حورى) ، فى استنكار :

ـ ماذا ؟!

خاطبه (تاعو) فى صلف :

ـ ليس لك حق الاعتراض يا فتى ، ظننا هذا واضحًا ..

وقال (خيان) :

ـ لتكـــون فرصـــة عـودتك به حيًّا أقـل ما تكون ، ولنرى !

علا صدر (حورى) وهبط مرارًا، قبل أن يقول :

ـ ليكن .. سأعود به سيرًا على الأقدام ..

تألقت نظرة الإعجاب فى عينى (باستت) ، وهى تهمس لنفسها :

ـ يا له من أمثولة !

وهمست (نفرو) لنفسها بينما يكبلها الجنود ، وهى تتأمل (حورى) الذى حمل (محب) بصدره العارى وبطنه النازف على كتفه ، وانطلق يسير فى اتجاه غروب الشمس :

ـ لا تمت يا (محب) .. أرجوك .. لا تفعلها الآن ..

أما (خيان) فقد تابع (حورى) السائر خارج الخيام بعينيه ، وشيعه بهتافه الجهير :

ـ قل لملكك ألا يعبث ثانية مع (خيان) ، فالعبث مع آخر الرعاة نهايته سيئة .. سيئة للغاية ..

وطاولت ضحكاته عنان السماء ، بينما (حورى) يواصل الابتعاد ، تنغرس قدماه فى الرمال ، ودم (محب) فوق كتفيه ينزف ، والأمل يبدو بعيدًا ..

وقريبًا ..

* * *

٦ـ صـداقـة ..

خرج الكـاهن مــن غرفــة التطبيـب ، فـرأى الطفـل الأسمر يقف فـى الجوار برأس مطرق ينظر أرضًـا ، وعينـاه يملؤهـا النـدم الجـاف ، أمـا الدمـوع فمحبوســة داخلهما خلف جدار سميك من الثبات الزائف ..

تقدم الكاهن من الطفل الأسمر ، ربت علـى كتفيـه ، وقال فى بسمة هادئة :

ـ تشعر بالألم ..

رفع الطفل عينيه ، وسأل :

ـ هل هو بخير ، معلم (تحوت) ؟!

أجابه الكاهن وبسمته الهادئة تتسع :

ـ لم تكن الضربة غائرة إلى هذا الحد ، سيكون علـى ما يرام ..

عض الطفـل الأسمر علـى شــفتيه ، وعـاد يطـرق قائلاً :

ـ إنه خطئى .. خطئى أنا ..

سأله الكاهن ، مقرفصًا :

ـ وكيف ذلك ؟!

أشاح الطفل بوجهه ، قائلاً فى انزعاج بالغ :

ـ ما كان يجب ان أوافقـه على لعبـة النزال من البداية ، هو الذى أصر ..

قال الكاهن :

ـ أى أنه دفعك إلى الموافقة دفعًا ..

قال الطفل :

ـ كان يمكن أن أرفض ..

هز الكاهن كتفيه :

ـ كان سيغضب منك وبالتالى تفقد صداقته ..

لم يجد الطفل ما يقوله ، فأتبع الكاهن :

ـ لقد اخترت صداقته ، وهو ليس اختيارًا سيئًا على أية حال ..

قال الطفل :

ـ كنت أعلم أنى سأهزمه ، فهو ليس فى قوتى ، لكن .. لم أكن أعـرف أن الأمـور ستبلغ هذا الحد ، لـم أكن أعرف أبدًا ..

قال الكاهن :

ـ لقد فعلت ما هو مطلوب منك ، والأمور متى بدأت لا يمكنك أن تعرف إلام سوف تنتهى ..

عاد الطفل يقول فى ندم :

ـ كان من الممكن لكل هذا ألا يحدث ..

قال الكاهن ، وهو يشد على كتفه براحته :

ـ لكنه حدث ، وكان لابد أن يحدث ..

قال الطفل ، ناظرًا فى عينى الكاهن :

ـ إننى مستعد للعقاب الذى ترتئيه ، معلم (تحوت) ..

نهض المعلم (تحوت) وهو ينظر إلى الطفل الذى يناهز طوله خصره بالكاد :

ـ لقد نلته بالفعل !

فتح الطفل فمه فى غير فهم :

ـ هه ؟!

عد الكاهن على أصابعه :

ـ لقد حملتـه علـى كتفيك ، وعدت بـه إلـى هنـا فـى الوقت المناسب ، وتكـاد تمـوت الآن مـن قلقك عليـه ، إننى أرى فى كل هذا عقابًا مناسبًا لك !

لم يستوعب العقل الصغير كل الكلمات ، ورغم ذلك واصل الكاهن :

ـ الصداقة شيء جميل للغاية ، يجب أن تجاهدا للحفاظ عليه إلى الأبد .. إنها زهرة لوتس جميلة إن لم تعهدها بالعناية والرعاية ذبلت وماتت ..

واصل الكاهن رغم أن عقل الصغير لم يستوعب كل الكلمات :

ـ شيئان يفسدان الصداقة .. المال ..

صمت ..

ـ والنساء !

صمت ..

ثم عاد الكاهن يربت على كتفه ، قائلاً :

ـ قد لا يستوعب عقلك الصغير كل الكلمات ، لكنك ستدركها كلها يومًا ما ..

وبالفعل ..

لم يدرك الطفل مغزى الكلمات ، بل لم يتذكرها ، إلا وهو فى طريقه إلى (طيبة) عبر صحراء الشرق ، يسير على قدميه حاملا صديقه على كتفيه ، والأمل يتضاءل مع كل لحظة تمر ..

كانت الشمس تغرب عند الأفق قرصًا من نار ، ودماء صديقه الحمراء تسيل على الرمال ، وقدماه تشققتا من وعثاء السير الطويل ، غير أن الطريق ما زال أطول ، والدموع فى عينيه لا يبدو أنها ستجف عما قريب ..

* * *

[تمت بحمد الله]

مغامرات خيالية من مصر الفرعونية

د. محمد سليمان عبد المالك

لوتس آخر الرعاة

- من قلب الرمال المحرقة نهض الماضى مفرود الجناحين كعنقاء أسطورية ، وعاد الخطر القديم يهدد حدود المملكة المصرية بعد قرون من الأمان والسلام ..

- سيخوض زهور اللوتس معركتهم هذه المرة على الحدود الشرقية ، فى مواجهة أسطورة الطاعة العمياء ، وفى مواجهة آخر ملوك الرعاة أيضًا ..

- ذلك الذى ينوى ألا يكرر مأساة الأجداد ، والذى يرفض الهزيمة من جديد ، ولو كان الثمن هو القتال حتى آخر قطرة دم ..

الثمن فى مصر ٣٠٠ وما يعادله بالدولار الأمريكى فى سائر الدول العربية والعالم

المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة والإسكندرية
٨ شارع المنطقة الصناعية بالنباهية - الرقم البريدى : ١٢٣٨١
ت : ٦٨٢٥٥٥٤ - ٦٨٢٣٣٩٢ أو الرقم المجانى : ٠٨٠٠٤٢٢٠٠٠

المغامرة القادمة
الطّلسم